إرنستو ساباتو

ERNESTO SABATO

قبل النهاية

ترجمة: حسني مليطات

قبل النهـــــاية

إرنستو ساباتو

ترجمة: حسني مليطات

الكتاب: قبل النهاية

المؤلف: إرنستو ساباتو

ترجمة: حسني مليطات

التصنيف: أدب / مذكرات

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 731 - 5

© Heirs of Ernesto Sabato
c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria
www.schavelzongraham.com

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

ترجمات مزون

Madarek Publishing House

دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

"مزون" ... خط إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
بجهود الزملاء، من خلال الناشر، الذي اختار أن يكون
الاسم والجهد، هدية لأمه، مزنة رحمها الله، حيث كانت تهطل
كالسحابة، وتغيث كالمطر، وتحب العلم بشغف.

تركي الدخيل
٢٠١٨/٩/٢٥

الفهرس

كلمات افتتاحية ٩

الأزمنة الأولى والقرارات الكبرى ١٢

ربما هي النهاية ٩٢

الألم يحطّم الزمن ١٣٦

الخاتمة ١٦٦

عن المترجم ١٨١

إلى ذكرى....

أمي

ماتيلد

خورخي فيدريكو

كلمات افتتاحية

تملكتني الكثير من الشكوك، تلك الشكوك المحزنة حول محتوى هذا النوع من الوصايا، الذي حثوني على نشره أكثر من مرة، وقررت في النهاية أن أفعل ذلك، قالوا لي: «ينبغي عليك الانتهاء منها في أسرع وقت ممكن؛ فالشباب يائسون، وقلقون، ويثقون بحضرتك، ولعلك لن تخذلهم»، فتساءلت مع نفسي إنْ كنت أستحق بالفعل تلك الثقة، فلديّ بعض العيوب الخطيرة التي لا يعرفونها؛ إذ حاولت أن أفسر ذلك بطريقة أكثر دقة وحساسية؛ حتى لا أؤذيهم، فهم بحاجة إلى ثقة تامة ببعض الأشخاص، لاسيما في خضم هذه الفوضى العارمة، ليس فقط في هذا البلد، وإنما في العالم بأسره. والطريقة الأكثر كياسةً هي أنْ أقول لهم كما كنت أكتب في الغالب ألاّ يتأملوا إيجاد حقائقي الأكثر شططاً في هذا الكتاب، بل سيجدونها فقط في تخيّلاتي، وفي تلك الرقصات الخبيثة للمُقنَّعين الذين من أجل ذلك يقولون أو يكشفون عن الحقائق التي لن تشجعهم على الاعتراف أمام الوجوه المكشوفة. كذلك الأمر في الكرنفالات الكبيرة التي تكون في أحيانٍ كثيرة مثل قيء جماعي، شيء صحي في الأساس، إلا أنّه الشيء نفسه الذي يتركهم مؤهلين من جديد لتحمّل أعباء الحياة، ولتحمّل الوجود، حتى إنني أصبحت مقتنعاً بما أعتقده في داخلي، بأنه إذا كان الله موجوداً، فإنه غير ظاهر.

نعم، أكتب هذا بشكل خاص للمراهقين والشباب، وإلى أولئك الذين هم مثلي ممنْ هم على مقربة من الموت، ويسألون من أجل ماذا ولماذا عشنا وتحمّلنا، وحلمنا، وكتبنا، ورسمنا، أو ببساطة، لماذا استلقينا على المقاعد. بين سلبيات كتابة هذه الصفحات النهائية، أقوم بهذا الأسلوب عندما أكون أنا نفسي أكثر عمقاً، والأكثر غموضاً ولا عقلانية، إذْ كل ذلك حثّني على فعل ذلك؛ علني أجد ما يساعد على إيجاد الشعور بخطورة ذلك العالم المليء بالأهوال والخيانة والحسد والتشرد والتعذيب والإبادة الجماعية، أو ما يساعد أيضاً على الشعور بالطيور التي ترفع من معنوياتي عندما أسمع زقزقتها عند الفجر، أو عندما تأتي قطتي العجوز لتتكئ على ركبتي، أو عندما أنظر إلى لون الأزهار، التي تكون في بعض الأحيان صغيرة جداً، وينبغي مراقبتها من مسافة قريبة جداً.

رسائل متواضعة تلك التي منحتنا إياها الألوهية لوجودها، وذلك ليس فقط من خلال مخلوقات الطبيعة البريئة، وإنما من خلال أولئك الأبطال المجهولين مثل ذلك الرجل الفقير الذي دخل ثلاث مرات إلى بيت صغير كان يحترق في قرية بائسة، حيث كان يوجد بداخله عدد من الأطفال -ممن تركهم آباؤهم للذهاب إلى أعمالهم- في غرفة محكمة الإغلاق، محاولاً إِنقاذهمِ، إلاّ أنّهِم ماتوا

في المحاولة الأخيرة، ليتبين لنا أنه ليس كل شيء بائساً ودنيئاً وقذراً في هذا العالم، وأن ذلك الفقير المجهول، مثله مثل تلك الزهور الصغيرة، عبارة عن دليل على كل شيء حتمي ومطلق.

الأزمنة الأولى والقرارات الكبرى

كمنفي
أمشي بين الأزقة
في مدينة قديمة
مولدي الأول
روحي تتقدمني
مترددة وقلقة
ماذا يزعجها؟
رحليك أم بحثك
عن مسكن جديد؟
أنا هناك،
أسير أثناء نومي،
يتيماً ومهزوماً
الشوق إلى الشاطئ والتلال العالية
إلى ذلك القارب الأزرق
الذي يقترب من الساحل
إنه ينتظرني
ماتيلد كوسمينسكي- ريتشيتر[1]

(1) هي زوجة إرنستو ساباتو، فقد كانت شاعرة وأديبة، شكلت جزءاً مهما من حياته، فعبّر عن أهمية وجودها في صفحات مهمة من هذه الذكريات. (المترجم)

استيقظت للتو، كانت الساعة تقريباً الخامسة فجراً، حاولتُ ألاّ أُحدث ضجيجاً، حيث أذهب إلى المطبخ وأعدّ كوباً من الشاي، وأثناء ذلك أحاول تذكّر مقتطفاتٍ من أحلامي الصغيرة، تلك الأحلام التي بدت لي خالدةً وممزوجةً بذكريات الطفولة، فمع بلوغي العام السادس والثمانين، لم يكن لديّ مطلقاً ذاكرة جيّدة، كنت دائماً أعاني من تلك المساوئ، ولعل هذه تكون وسيلة لأتذكر فقط ما يجب أن يكون. ربما أعظم ما حدث لنا في الحياة هو ذلك الذي فيه معنى عميق، ذلك الذي كان حاسماً -من أجل الخير أو الشر- في تلك الرحلة المعقدة والمتناقضة وغير قابلة للتفسير باتجاه الموت الذي هو حياة

أي شخص آخر. من أجل هذا فإنّ ثقافتي غير متناسقة، مليئة بالثقوب الكبيرة، كما لو أنها تشكلت من بقايا معابد جميلة بتلك التي تحتفظ بأجزاء بين سلة مهملات ونباتات برية، بالإضافة إلى الكتب التي قرأتها، والنظريات التي عاشرتها، والعودة إلى زلاتي نفسها مع الواقع.

عندما يوقفني النَّاس في الشارع، أو في الساحة، أو في القطار؛ من أجل أن يسألوني: ما الكتب التي ينبغي علينا أن نقرأها، أقول لهم دائماً: «اقرأوا الكتاب الذي يثير مشاعركم، فهو الشيء الوحيد الذي سيساعدكم على تحمّل الحياة».

من أجل هذا صرفت النظر عن عنوان «المذكرات» وكذلك عن عنوان «ذكريات ضعيف الذاكرة»؛ لأن ذلك بدا لي لعباً بالكلمات، وغير ملائم لهذا النوع من الوصايا، وكنت قد كتبت ذلك في وقت أعتبره من أكثر الأوقات حزناً في حياتي، إذ إنني في هذا الوقت الذي أشعر فيه بالعجز، لا أتذكر القصائد الخالدة عن الزمن والموت، تلك القصائد التي من الممكن أن تواسيني في هذه السنوات الأخيرة.

في القرية الريفية حيث ولدتُّ أنا، كانت هناك عادة نقوم بها قبل أن نذهب إلى النوم وهي أن تطلب من أحد أفراد العائلة أن يوقظك، فنقول: «لا تنس أن توقظني في الساعة السادسة». كانت تعجبني دائماً تلك العلاقة التي تكون بين الذاكرة والاستمرارية في الحياة.

كانت الذاكرة تحظى بتقدير كبير من الثقافات العظيمة، كمقاومة التطور الزمني، ليست ذاكرة الأحداث البسيطة، ولا تلك الذاكرة التي تخدم من أجل تخزين المعلومات كما هو الآن في أجهزة الحاسوب: فأنا أتحدث عن الحاجة إلى رعاية ونقل الحقائق الأصلية.

في المجتمعات القديمة، وبينما يخرج الأب للبحث عن قوت يومه، والنساء يعملن في الفخار أو في جني المحاصيل، فإنّ الصغار يجلسون على ركب أجدادهم، حيث كانوا يتعلمون من حكمهم، تلك الحكم التي ليست بمعنى التعايش العلمي الذي تمنحه هذه الكلمة، بل بمعنى ذلك الذي يساعدنا على العيش والموت، حكمة أولئك الناصحين، الذين كانوا بشكل عام أميّين، ففي يوم ما، عندما كنتُ في دكار، قال لي الشاعر الكبير سنغور[(2)] : «إنّ موت واحد من هؤلاء العجائز هو عبارة عن حريق مكتبة من المفكرين والشعراء». في تلك القبائل، يوجد للحياة قيمة مقدسة وعميقة، وطقوسهم ليست جميلة فحسب، بل هي أيضاً غامضة جداً؛ إذ إنّهم كرّسوا الحقائق الأساسية للوجود: الولادة، والحب، والألم، والموت.

(2) هو ليوبولد سنغور، المعروف بلقب «الشاعر الرئيس»، الذي انتخب رئيساً للسنغال مطلع العقد السادس وحتى العقد الثامن من القرن العشرين، نشرت مجموعته الشعرية كاملة باللغة العربية. (المترجم)

حول ما يُشبه الظل الذي أترقبه، ووسط الكآبة والبؤس، وكواحد من شيوخ القبيلة أولئك، ممنْ يكيّفون معاً حرارة الجمار، مستحضرين أساطيرهم وحكاياتهم القديمة، أهيئ نفسي لرواية بعض الأحداث الممزوجة والمنتشرة، تلك التي كانت جزءاً من جهد عميق ومتناقض، في حياة مليئة بالأخطاء وعدم الترتيب والفوضوية، وفي بحث يائس عن الحقيقة.

اسمي إرنستو، لأنني ولدتُّ في ٢٤ من شهر حزيران عام ١٩١١م، يوم ميلاد القديس يوحنّا المعمدان، بعد وفاة إرنستو الآخر، ذلك الذي ما زالت أمي -على الرغم من كبرها في السن- تناديه بــ إرنستيتو(3) Ernestito، لأنه مات عندما كان رضيعاً. «ذلك الطفل لم يكن من أجل هذا العالم»، كانت تقول. أظنّ أنني لم أره تبكي بتاتاً -كانت رزينة وشجاعة طوال حياتها-، إلاّ أنها كانت تبكي -بالطبع- دائماً لوحدها. كان عمرها تسعين سنة عندما أخبرتني بذلك للمرة الأخيرة، بعينين دامعتين على البعيد إرنستيتو. وهذا يُثبت أنّ سنوات البؤس وخيبات الأمل بعيدة عن احتمالية النسيان، كما يُعتقد عادة، لتعزز تلك السنوات حسرتها.

(3) التصغير في اللغة الإسبانية ينتهي عادة بــ تا أو تو، حسب الاسم إن كان مذكرا أم مؤنثا، وفي لفظه إيقاع إيحائي إلى ذلك النوع من التصغير، ويستخدم عادة في أسماء الأشخاص أو الحيوانات بغرض التحبب. (المترجم)

إنّ اسم ذلك الذي كان في بطن أمي وقبره كانا دائماً بالنسبة لي شيئاً من وحشتي، وربما كانا سبباً في وجودي الأكثر صعوبة، بعد أن كان ذلك الوجود مؤشراً على تلك المأساة، ولعل ذلك ما سبَّب لي رعباً غامضاً جداً كنت أعاني منه كفتى، كما سبّب لي هلوسات قرّبها مني شخص ما يحمل مصباحاً: رجل كان من المستحيل عليّ تجنبه، على الرغم من أنني تواريت عنه مرتعشاً تحت اللحاف، أو قد سبّب لي ذلك الكوابيس التي كنت أشعر بها منفرداً في قبو وجودي، أرتجف أمام شيء ما أو أمام شخص ما -لا يمكنني تحديد ذلك- فالحيرة تذكّرني بأبي. عانيت لفترة طويلة من مشكلة السير أثناء النوم؛ أخرج من الغرفة التي كُنّا نطلق عليها اسم «الغرفة الأخيرة»؛ بحكم موقعها داخل بيتنا، وهي الغرفة التي كنت أنام فيها مع أخي الأصغر أرتورو، الذي بدون أن أتعثر به فإنّه لا يوقظني أبداً، فأذهب إلى غرفة نوم والديّ، أتحدث مع أمي، وأعود بعد ذلك إلى غرفتي، استلقيت بعد ذلك على سريري دون أن أعرف أي شيء حدث لي بدون أي وعي، إلا عندما قالت لي أمي بحزن -عانت كثيراً من أجلي-، وبصوت بالكاد أسمعه: «نهضتَ في الليل وطلبتَ ماءً»، فشعرتُ برعشة غريبة تهز جسدي، فهي تخشى عليّ من السير في الليل، قالت لي

ذلك قبل سنوات طويلة، عندما أرسلوني إلى لابلاتا لأدرس الثانوية، فهي لم تبق معي لتحميني، مسكينة أنت يا أمي، لم تكن تدرك ولا أنا أيضاً أن قسماً كبيراً من تلك الغصة كان نتيجة التعايش الإسبارطي الذي كان يحكمه أبي.

أرض طفولتي، كقرية ارتعدت بسبب القوى الغريبة، والتي كانت قد غزت بالرعب الذي شعرت به تجاهها، أبكي بخفاء؛ لأنهم كانوا قد حظروا علينا فعل ذلك، ومن أجل تجنب هجماتهم العنيفة، ركضت أمي لتخبئني. مع اليأس، كانت أمي قد ألصقتني بجانبها لتحميني، دون أن تتمنى أن يمسني أي سوء، فإنّ حبّها وحنانها خالدان فيّ ولا نهاية لهما، فيكفي أنهما قد عزلاني عن العالم كله. كُن طفلاً وحيداً وخائفاً، تفكرت من الشباك في عالم اللعب والخفاء الذي كان بالنسبة لي محظوراً. بطريقة ما، لم أتخل أبداً عن أن أكون طفلاً منعزلاً يشعر بالتخلي عن الآخرين، لأجل ذلك عشت تحت وطأة شعور مشابه لـ بيسوا: سأكون دائماً الشخص الذي أنتظر أن يُفتح له الباب، في جدار لا يوجد فيه باب.

لذلك، كنت بحاجة إلى العطف والحنان بأي طريقة كانت.

عندما أرسلوني من قريتي إلى المدرسة الوطنية في لابلاتا من أجل دراسة الثانوية، وفي اللحظة التي وضعوني فيها داخل عربة القطار، شعرتُ بأن الأرض التي انتقلت إليها تتشقق من حولي، إلاّ أن ذلك الذي ما زالوا ينتظرونه كان أسوأ غرق. مع الوقت كنت أواصل أحلامي بتلك الأم التي تنظر إليّ من بين الدموع، بينما تبعدني تجاه عزلة لا حدود لها، وعندما ظهر على وجهي بؤس الحياة، كم مرةً!!، أثناء جلوسي على مقعد الساحة، حيث كنت آسفاً وحزيناً، أنتظر من جديد قطار العودة.

أتمشى بجانب الساحل الجنوبي، أتأمل النَّهر العجيب الذي عبره في منتصف القرن الماضي آلاف من الإسبان والإيطاليين واليهود والبلقان والألبانيين والروس والألمان، غير منقطعين بسبب الجوع والبؤس. الرؤى العظيمة التي ملكتها الدولة تقدم استعارة العدم التي هي موطننا إلى «كل الرجال من أصحاب الإرادة والرغبة الجيدة»، المحتاجون إلى موطن، في أرض يتجذّرون فيها، على اعتبار أنه من المستحيل العيش دون وطن، أو «أم»، كما يفضل أونامونو أن يقول، وبالفعل فإنّ الوطن هو الأم، والأساس الحقيقي للوجود. لكن معظم أولئك الرجال يجدون نوعاً آخر من الفقر، ذلك الناتج عن الوحدة والحنين؛ فبينما يبتعد القارب عن الميناء، تجد هناك وجوهاً مخططة بالدموع، تلك الوجوه التي تلتفت إلى الأمهات والأبناء والإخوة وهم يتلاشون تجاه الموت، معتبرين أنفسهم أنهم لن يعودوا إلى رؤيتهم أبداً.

من ذلك الحزن الذي لا علاج له، ولدت التانغو، الأغنية التي وجدتها أكثر غرابة، وهي الأغنية التي عرَّفها ذات يوم المتألق إنريكي سانتوس ديسثيبولو المعروف بإبداعه العالي، بأنها عبارة عن فكر حزين يرقص. فنانون متواضعون مع آلات في متناول أيديهم، مثل: الكمان، والناي، والقيثارة، وبالتالي فهم يكتبون جزءاً أساسياً من تاريخنا الذي لا يعرفونه. فأي بحّار من ميناء جرماني يُحْضِر بين يديه آلة الباندونيون[(4)] ؟ الآلة التي تمنحه طابعه الأكثر عمقاً ودراماتيكية، والتي أُنْشئت لخدمة الإله في الشوارع، وفي الأغاني الدينية لخدمات اللوثريين، بالإضافة إلى أنّ تلك الآلة المتواضعة وجدت هدفها على بعد آلاف من الأميال؛ فمع الباندونيون تجد الكآبة والمقدس، حتى يتمكن الإنسان من التعبير عن مشاعره بعمق.

(4) من الآلات الموسيقية الشعبية المعروفة في بعض بلدان أمريكا اللاتينية، مثل: الأرجنتين، والأورغواي وليتوانيا، وهي من أهم الآلات التي تحتاجها فرق التانغو التقليدية. (المترجم)

كم من هؤلاء المهاجرين سيتابع رؤية جباله وأنهاره المفصولة بسبب البلاء والسنوات، فمن ذلك المعمل الفوضوي الضخم، تقام هذه المدينة على الميناء، وتتحول الآن إلى صحراء مكدسة بالمنعزلين.

وفي السير بجانب ذلك الوحش البحري المرعب، بجانب السواحل التي يراها المهاجرون لأول مرة، أظن أنني سمعت سوداوية كآبة الباندونيون لترويلو.

عندما يجعلني بؤس وغضب بوينس آيرس أشعر بالوحدة،

أبحث عن ضاحية في الوسط، وثم

من خلال المساحة الضبابية لمنتصف قرن

خصب ومدمر بسبب الحب وخيبة الأمل،

أنظر باتجاه ذلك الطفل الذي كان في زمن آخر.

أتذكر بكآبة

الشعور بالقطرات الأولى من المطر

على أرض جافة من الشوارع وعلى أسطح الزنك

«إنّ المطر الذي يُمطر العجز موجود في الكهف»

حتى إن الطيور تغرد وتجري حافية القدمين

لتبدأ القوارب الصغيرة بدورها.

زمن أشرطة توم مكس

والملصقات الملونة،

لتيسوريري، وموتيس وبيدوكليو،

أزمنة الدوارات على الأحصنة،

والفول السوداني المحمص في أمسيات الشتاء

وقاطرة صغيرة وصفيرها.

العالم الذي بالكاد أن نلمحه عندما نكون وحيدين

في هذه الفوضى من الضجيج والعلاقات

لا مكان للحدائق مع الجلايسين والقرنفل

من بين هذا العدد الكبير من المستعمرين، وصل والدايّ إلى هذه الشواطئ وكلهما أمل بنمو وازدهار «أرض الميعاد»، التي اتسعت إلى أبعد من دموعهما.

ينحدر والدي من الجبال الإيطالية، من أولئك المعتادين على قسوة الحياة، أما أمي فتنتمي إلى عائلة ألبانية، كان ينبغي عليها أن تتحمل الحرمان بكرامة.

استقرا معاً في روخاس، تلك التي كانت جزءاً كبيراً من القرى القديمة في ذلك الوطن، كما أنّها كانت حِصناً من الحصون التي أقامها الإسبان، والتي حدّها حدود التعايش المسيحي.

أتذكر عجوزاً هندياً حكى لي حكاياتٍ عن المعارك الدامية وعن المالونيس(5)، الذي ظفر بالشجاعة مع الصبر، والذي قيل له إنهم سيبثّون من خلال راديو غالينا نزاع فيربو مع ديمبسي، فقال: «كلما ازداد الوعي، يزداد العمل والنشاط».

(5) هو تكتيك عسكري كانت تستخدمه بعض شعوب أمريكا اللاتينية، وكان يتألف من هجوم سريع ومباغت، يقوم به عدد كبير من الفرسان، وقد اشتهر استخدامه في أراضي التشيلي والأرجنتين، وقد أدخلت هذه الكلمة إلى قواميس اللغة الإسبانية، ليصبح معناها: «الغزوة أو الغارة التي كان يقوم بها الهنود الحمر» أو بمعنى «الخيانة». (المترجم)

في هذه القرية، فتح أبي مطحنة صغيرة لطحن القمح، حيث مركز التخيلات الساذجة للطفل الذي سيكون أنا، فعندما يأتي يوم الأحد، أمكث في الورشة أقوم ببعض الأشياء الصغيرة في النجارة، أو أقوم أنا وأرتورو بحمل أكياس القمح، ونقوم بإخفائها كما لو أنها سر غامض، وفي المساء، نتمشى قليلاً ونأكل البسكويت.

كان أبي السلطة العليا لتلك العائلة التي تنحدر فيها السلطة بشكل هرمي تجاه الأخوة الأكبر سناً، فما زلت أذكر نظراتي المشبعة بالخوف إلى وجهه

المجعد بسبب النُصوع والقسوة، فقد كانت قراراته الغير قابلة للرفض أساس النظام الشديد لفرض المراسيم والعقوبات، وكانت تلك القرارات تشمل أمي بالطبع، أمي المعروفة بهدوئها الدائم وصبرها، ربما هي وحدها مَن عانت من هذه الشخصية الفاعلة والقاسية. فلم أسمعها بتاتاً تشتكي، وفي خضم هذه الصعوبات كان ينبغي عليها أن تتولى المهمة الصعبة لتربية أحد عشر طفلاً من الذكور.

ترك التعليم الذي تلقيناه آثاراً حزينة ودائمة في داخلي، بالإضافة إلى أنّه كان تعليماً قاسياً في أغلبه؛ فقد علمونا كيفية القيام بالواجب، جاعلين كل شيء ناتجاً عنه، بالإضافة إلى أننا كنا صارمين مع أنفسنا وفي العمل حتى انتهاء أي مهمة كنا قد بدأنا بها، وإذا حققنا شيئاً ما فقد كان بسبب تلك السمات التي ينبغي علينا استيعابها بجفاء.

كانت حدة أبي مرعبة في بعض الأحيان؛ فقد دفع إلى حد كبير بذلك اللوم الكامن في داخلي، لأكون أكثر عرضة للحزن وللكآبة، كما أنه هو السبب في تمرد اثنين من إخوتي كانا قد هربا من البيت، وهما: أومبويرتو، الذي سأتحدث عنه فيما بعد، وبيبيه، الذي كانوا يسمّونه في القرية «ساباتو المجنون»، الذي انتهى به المطاف بالذهاب مع سيرك، ليكون مُسبِّب العار لعائلتي البرجوازية؛ فقد سبّب قراره الحزن لوالدتي، إلا أنها تحمّلت ذلك وأضافته إلى الحزن الذي كانت تحتفظ به بداخلها حتى بلوغها سن الشيخوخة، أي عندما أكملت عامها التسعين، فبعد معاناة طويلة ماتت بهدوء على سريرها بين ذراعي ماتيلد.

كان أخي بيبيه شغوفاً بالمسرح وعمل مع المجموعات القروية التي كان يطلق عليها اسم «الأصدقاء الثلاثون المتحدون»، وعندما بدأ عرض المشهد الأول في سينما لابيرلا، كان قد حصل على بعض الأدوار، التي كان معظمها عبارة عن أدور قصيرة. كان يحتفظ في غرفته بالمجموعة الكاملة لـ Bambalinas، التي طُبعت في بوينس آيرس بغلاف ملوّن. وعلاوة على تلك المشاهد المسرحية المنشورة، فقد نُشرت أيضاً أعمال الكاتب المسرحي النرويجي هنريك ابسن، تلك الأعمال التي ذكرتني بـ تولستوي، كنت قد التهمت كل تلك المجموعة قبل أن أبلغ الثانية عشرة، فقد كنت أحتفي بها كثيراً في حياتي، فالمسرح كان يثير شجوني دائماً، فعلى الرغم من أنني كتبت بعض الأعمال المسرحية، إلا أن هذه المجموعة لم تغادر أدراج مكتبي بتاتاً.

بعيداً عن القسوة في تعامله، فقد كان والدي يضمر جانبه الأكثر ضعفاً، قلب ساذج وسمح؛ كان يمتلك إحساساً مذهلاً بالجمال، لدرجة أنه عندما اضطر للانتقال إلى لابلاتا مع والدتي، قام هو نفسه بتصميم البيت الذي نسكن فيه، واكتشفت مؤخراً شغفه بالنباتات التي كان يعتني بها بكل عِناية ورِقة، وبالتالي

فقد كان مجهولاً بالنسبة لي في ذلك الحين. لم أره مطلقاً يهين أحداً بكلمات قاسية، ومع السنوات، تعجبت من وفائه لبعض أصدقائه، وخير مثال على ذلك ما فعله مع دون سانتياغو، الخياط الذي مرض بداء السل، فعندما نصحه الدكتور ويلغيره بأن الفرصة الوحيدة المتاحة للبقاء هي الذهاب إلى جبال قرطبة[6] ، رافقه والدي في تلك الحجرات الضيقة لقطار قديم، وبالتالي فإن احتمالية العدوى كانت ممكنة.

(6) سلسلة الجبال الواقع في منطقة قرطبة (الأرجنتين)، ولعل سبب التسمية المماثلة لاسم مدينة قرطبة الإسبانية يعود إلى أيام الاستعمار الإسباني للأرجنتين، والناظر إلى طبيعة المدينة الأرجنتينية يجدها تتقارب بعض الشيء مع الجمال طبيعة مدينة قرطبة في إسبانيا. (المترجم)

أتذكر دائماً ذلك الموقف الذي يُعَرِّف حبه للصداقة، والذي يَعْرِف تقدير قيمة الصديق بعد عدة سنوات من وفاته، مثلما يحدث عادة في هذه الحياة، التي تُعتبر في الكثير من الأحيان عبارة عن خلاف دائم، عندما فات الأوان لنقول له إننا نريده على الرغم من كل شيء، ومن أجل أن نشكره على جهوده لمحاولته تحذيرنا من المصائب التي لا مفر منها، والتي هي في الوقت نفسه عبارة عن دروس.

فلم يكن كل شيء رهيباً في والدي، فمع فقدانه كنت أشعر بالحنين إلى الشعور بالفرح المنسيّ معه، كالليالي التي كان يضعني فيها على ركبتيه، ويُغنّي لي أغاني من وطنه، أو عندما يعود في المساء من لعب الورق، التي كان يلعبها في Clup Social، ويجلب لنا المانتولينا، حبوب من الحلوى التي كنا نحبها كثيراً.

لسوء الحظ رحل أبي، وبقيت أشياء مهمة لم يقلها لنا؛ عندما يكون الحب شيئاً يتعذر تفسيره، والجروح القديمة تبقى نازفة، فإننا نكتشف العزلة الأخيرة: حياة العاشق دون حبيب، أبناء دون آباء، وأب دون أبناء.

منذ سنوات طويلة، كان قد ذهب إلى باولا دي سان فرانسيسكو حيث وقع في أحد الأيام في حب أمي؛ ألمحُ طفولته بين تلك الأراضي التي كان يتوق إليها، أنظر باتجاه المتوسط، أحني رأسي وأغمض عينيّ.

ونحن نقترب من الموت، فإننا ننحني أيضاً تجاه الأرض، ولكن ليس إلى الأرض كلها، وإنما إلى تلك القطعة الصغيرة جداً والعزيزة جداً كذلك، إنّه الاشتياق إلى قطعة الأرض تلك التي قضينا عليها طفولتنا، ولأن من هناك بدأتُ تعليمي القاسي، فإنني أبقيتها محفوظة في ذاكرتي، استحضرت بكآبة ذلك الكون البعيد والغريب، لأوجز الآن كل ذلك في لحظة، في ساحة متواضعة، وفي شارع ما.

كنتُ دائماً أشتاق إلى طقوس طفولتي في «يوم الملوك»[7] الذي لم يعد له

وجود الآن، حتى في الدول الاستوائية، فقد استبدلوهم بأولئك الفقراء الشياطين الذين يرتدون ملابس بابا نويل، بالفرو الأبيض القطبي، واللحى الطويلة البيضاء مثل الثلج، حيث يَدّعون أنهم جاءوا من المناطق التي تتساقط عليها الثلوج بشكل دائم. أنا أتحدث عن يوم الملوك الذي كان زمن طفولتي في قريتي الريفية، حيث كانوا يأتون حزينين عندما يكون الصغار قد ناموا، لكي يتركوا في أحذيتنا شيئاً نتمناه بشدة، كما يضعون شيئاً للعائلات الفقيرة جداً، التي بالكاد يمكنها جلب بعض الألعاب من الصفيح، أو بعض الحلوى، أو لعبة صغيرة؛ حتى تتمكن الطفلة من تقليد خياطة أمها، لتقص فستان لعبة من القماش.

(7) من الأعياد الرسمية في إسبانيا، ويبدأ مساء يوم الخامس من شهر يناير حتى اليوم الذي يليه، وهو عيد خاص بالأطفال. (المترجم)

واليوم أود أن أطلب شيئاً واحداً من أولئك الملوك: أن يُعيدوني إلى ذلك الزمن الذي كنتُ أؤمن بوجودهم فيه، إلى تلك الطفولة البعيدة قبل ألف عام، عندما كنت أنام مشتاقاً لوصولهم على ظهر الجمال الخرافية، القادرة على عبور الجدران وحتى المرور من خلال شقوق الأبواب -لأنهم كما فسرت لنا أمي، كانوا قادرين على فعل ذلك-، صامتين ومغمورين بالحب. تلك الكائنات التي نتوق إلى رؤيتها، والتي بدورها كانت تؤخرنا عن الذهاب إلى النّوم، حتى إنّ حلم كلّ الصغار الذي لا يُقهر يمكن أن يكون أكثر من تلهفنا الشديد لرؤيتهم. نعم، كنت قد اعتقدت بأنّهم أعادوني إلى ذلك الأمل، وإلى تلك السذاجة، فأنا أعلم بأنه طلب كبير وحلم مستحيل، إنّه السّحر الذي لا يمكن إعادته إلى طفولتي في أعياد الميلاد المجيدة، وأعياد ميلاد الأطفال، والإحساس بالحر الشديد أثناء قيلولة الصيف. في وقت متأخر بعد الظهر، أرسلتني أمي إلى بيت ميسيا إسكولاستيكا، السيدة الكبيرة؛ لحظات من طقوس الحلوى وبسكويت «لولا»، في مقابل تأدية التحيّة الدائمة: «أرسل لأمي لأطمئن على حالها، ولأستجمع الكثير من الذكريات». أشياء هكذا، ليست كبيرة، بل أشياء صغيرة وبسيطة جداً.

نعم، أردت أن يعيدوني إلى ذلك العصر، عندما كانوا يبدأون القصص بـــ: «كان يا ما كان....»، ومع الإيمان المطلق للأطفال، فقد يرتقي الواحد إلى واقع غامض؛ ذلك الطقس المثير للمشاعر، عندما وصلت إلى رؤية السيرك الضخم المقام في «ساحة إسبانيا» مع تأملنا الصامت للأعمال السحرية، والالتفات إلى مروّض الحيوانات الذي أغلق على نفسه مع الأسد في قفص يبلغ طوله مساحة المنطقة المُقام عليها السيرك. إنّه المهرج والساكريبيني والبيرتولديتو، الذي كانوا يحبون أدواره التراجيدية، حتى ولو كانت لليلة واحدة فقط، عندما مثَّل ذات يوم شخصية Espectros (الشخصية غير الحقيقية، المتخيلة

أو الفانتازية)، تسمم في المشهد بينما الجمهور كانوا يصفقون ببراءة. عندما رفعوا الستارة وجدوه ميتاً، وزوجته أنجليتا ألركون، التي اشتهرت بدور البهلوان، كانت تبكي محتضنة جسده بقوة.

كُنت أتذكره، وبشكل دائم، عندما أتأمل المهرجين الذين رسمهم جورج رووه؛ أولئك الفقراء المساكين الذين بعد أن ينهوا دورهم، يذهبون إلى العربة الثقيلة وحيدين، يزيلون ما عليهم من زينة ويعودون إلى حياتهم المظلمة، حيث كبار السن الذين يعلمون أن الحياة ناقصة، وأن حكايات الأطفال المليئة بالخير أو بالشر، بالعدل أو بالظلم، بالحقيقة أو بالكذب، هي في النهاية شيء أكثر من هذا، إنها أحلام بريئة. الواقع الصعب هو الفوضى الكئيبة والمُثل الجميلة والإنجازات الخرقاء، لكن سيكون هناك بعض العنيدين، والأبطال، والمقدسين، والفنّانين، الذين يصلون في حياتهم وفي أعمالهم المجزأة إلى المطلق، ليساعدونا بذلك على تحمل النِّسب المقززة.

في عزلتي الدراسية، تأملت الساعة التي تعود إلى أبي، وماكينة الخياطة القديمة New Home لأمي، والإناء الفضي الصغير، والمسدس الذي يضعه أبي دائماً في درجه، والذي سيورثه بعد ذلك إلى أخي الأكبر، حتى يصل إلى يديّ. شعرتُ كشاهد حزين بانتقال الأشياء التي لا مفرّ منها، التي تعرض بسرمدية غريبة على الرجال الذين استخدموها، فعندما ينجون منها، يعيدون إلى حالتهم الأشياء غير المفيدة وكل السّحر، وكل السذاجة، لتطير، مثل أوهام كاذبة أمام خطورة العيش، بقايا الوهم، وشذرات من حلم حالم: مراهق ذابل،

خطورة كآبتك تبكيك،

أحلامك لن تعود،

يا قلبي،

طفولتك انتهت.

أرض طفولتك،

بقيت إلى الأبد إلى الوراء

يمكنكم أن تتذكروا فقط، بألم،

السنوات الرائعة.

غبار يغطي جسدك،

لا أحد يسمع صلواتك،

أحلامك لن تعود،

يا قلبي، طفولتك انتهت.

عندما أنهيت دراستي الابتدائية في قريتي عام ١٩٢٣م، وفي منتصف التمزّق الأكثر عمقاً في حياتي، أحضرني أخي بانشو إلى لابلاتا لأكمل دراستي، أتذكر الليلة الأولى، وفجرها المبهم في البيت الذي يقع على شارع بيدرو إيتشاغي، سمعت بين أحلامي ضجيجاً غير مألوف لي، بقي خلال عقود كصورة من طفولتي الحزينة؛ صوت حوافر الخيول وأشياء مسطحة مرصوفة، والأزمنة البعيدة التي يمكن فيها ارتداء الجينز، فعندما كنّا فتياناً كنّا نرتدي السراويل القصيرة، فالسراويل الطويلة كانت ترمز إلى حدث مرعب في حياتنا، متميزة بالفخر وبالعار.

في كثير من الأحيان، كنت أبكي في منتصف الليل في تلك المدينة التي أصبحت بعد ذلك متصلة باعتزازي بهدفي، ففي الأيام الحزينة التي سبقت البدء بالدروس تملكتني واحدة من الآلام الكبيرة؛ كنت قد جلبت معي إلى الغابة لوحاً صغيراً من الصفيح، ولوحة ألوان للرسم تقليدية ومتواضعة، كان أخي قد اشتراها من محل للخردوات في القرية، كان معي ألواناً مائية، كنت اعتبرها بمثابة الكنز بالنسبة لي، بالإضافة إلى تلك الصور المنسوخة من التقاويم، وفي هذه الأثناء أتذكر الترويكا (العربة الروسية التي تستخدم أثناء التزلج) في الثلج الروسي البعيد والمبهم.

سألت كيف أذهب إلى غابة لابلاتا المشهورة؟! حيث كنت أحمل معي الألوان المائية، وقنينة ماء، وزوجاً من فراشي التلوين، ودفتراً صفحاته بيضاء، جلست على العشب بين أشجار الكينا الضخمة وبدأت برسم واحدة من تلك الجذوع المُقشّرة، مع إضفاء صبغات مُدَّرجة بالألوان: الأخضر والأصفر الداكن والبني، مركبة بطريقة تهزني من داخلي، إذ إنّ كلّ شيء كان هادئاً في ذلك الصباح، ولشدة الجَمال كنت قد نسيت حزني وكآبتي، فجأة حدث تغيّر ما: كان عمري أقل من إحدى عشرة سنة، وكنت وحيداً في مدينة مجهولة، عندما ظهر بشكل مفاجئ مجموعة من الأولاد، أعمارهم في حدود الخمسة عشر عاماً، كانوا يضحكون عليّ، وسحبوا مني بقوة لوحة الألوان، ومرغوا الألوان المائية المتواضعة، وكسروا لي فراشي التلوين ورموا بعيداً زجاجة الماء، استمرّوا في الضحك عليّ حتى غادروا، في الوقت الذي بدا لي لا نهاية له، بقيت جالساً على العشب، إلا أنهم تسببّوا في ذرف دموعي، بعد ذلك نهضت وعدت ببطء إلى سكني، إلا أنني جهلت موقعه، فكان ينبغي عليّ أن أسأل عدة مرات أين يقع الشارع الذي يقع فيه مسكني.

أخيراً، عندما وصلت، دخلت إلى غرفتي الصغيرة وبقيت طيلة اليوم مستلقياً على السرير، كنت أرتجف كأنني مصاب بالحمى، أو لعلني أصبت بها.

بعد سنوات طويلة، عدتُّ إلى جامعة لابلاتا، لتستيقظ فيَّ، حينها، الذكريات المنسيّة، بالإضافة إلى الأحاسيس التي تجثو على روحي؛ ففي هذه المدرسة وفي هذه المدينة، جثمت جذور كل ذلك الذي كان. مع مضيّ الزّمن، فإنّ المدن التي كنت أتجول فيها بعد ذلك، وحول العالم كله، لم تستطع طمس شوارعها المشجرة بأشجار الزيزفون وأشجار الموز. مرت السنوات، إلا أنه في كل مرة أو عدة مرات تعود إلى ذاكرتي هذه المدينة، حيث حدثت اللحظات المهمة في حياتي؛ حيث تعرفت على ماتيلد، وأنهيت الثانوية، وبعد ذلك أنهيت دراستي الجامعية، فهنا ولد ابننا خورخي فيدريكو وهنا مات والداي أيضاً. ففي هذه الساحات، وفي هذه الغابة التي كانت في بعض الأحيان وديعة، وفي أحيان أخرى كئيبة، تُصاغ الأفكار الرئيسية التي رافقتني في الحياة.

كانت جامعة لابلاتا التي أسسها دون خواكين غونثاليث مشهورة في كل دول أمريكيا اللاتينية؛ حيث كان الطلبة الذين يدرسون فيها يأتون من كولومبيا والبيرو وبوليفيا ومن غواتيمالا، تلك الدول التي تُنشئُ مُسْتعمراتها ببيوت كبيرة. تعاقدت الجامعة مع أساتذة مرموقين في العلوم والعلوم الإنسانية ممن كانوا يعملون في أوروبا، ومثال ذلك، تعاقدها مع الأستاذ شيلر، ذلك الرجل الذي ولد ومعه طموح مختلف؛ إذ عمل في معاهد علمية كبيرة، بتنظيم أناس نبلاء، مثل عالم الفلك هارتمان، وقد كان مستوى تلك المعاهد مشابهاً لمستوى مراكز هايدلبرغ أو غوتنغن، إذ وصل المستوى في الجامعة إلى المستوى التعليمي الشامل، حيث كان يتم فيها التعليم الثانوي والابتدائي، وحيث كان الأطفال الذين يدرسون هناك يمتلكون طابعات خاصة بهم.

كيف أحنُّ إلى تلك المدرسة التي لم تُصنع فيها المهن!، حيث كان الوجود الإنساني سليماً، عندما يدافع الرجال عن الإنسانية الأكثر أصالةً، وعندما كان الفكر والشِّعر عبارة عن كشف روحي. وُجِدَ في مكتبة الجامعة عبارة كان قد كتبها عالم اسمه إميل بوسي، يقول فيها: «خُذْ الحقيقة واجلبها إلى كل العالم»؛ كان بوسي واحداً من أولئك الرجال الذين يتطلعون بلهف إلى الروح النقية، إلا أنه ألقى بها جانباً أو أهمل شأنها حتى يُشَمِّر عن ساعديه ويوسِّخ اليدين اللتين شكلتا هذه الأمة التي تعاني اليوم من ألم الاحتقار.

في الفترة التي كنتُ فيها طالباً في السنة الأولى، عرفنا أنّ لنا أستاذاً «مكسيكياً» كان يمتاز بصرامته كدومينيكاني، وأُغلق حلقي عندما أتذكر الصباح الذي رأيت فيه ذلك الرجل الصامت، الذي يبدو أرستقراطياً في كل إيماءةٍ من إيماءاته المُضمّنة لكلمة رصِينة يفرض من خلالها سلطة سريّة، اسم ذلك

الأستاذ هو بيدرو هيرنيركيث أورينا، ذلك الرجل المتفوق، الذي تمّ التعامل معه بخبث وممانعة من قبل زملائه، مع استياء واضح من الوسطيين منهم، لدرجة أنه لم يصل مطلقاً إلى أن يكون أستاذاً مشاركاً في أي من كليات الآداب التي عمل فيها.

أنا مَدين له باقترابي الأول من كبار المؤلفين، وكانت حكمته الوعظية التي مازلت أذكرها تقول: «حيث تنتهي القواعد (النحو) يبدأ الفن العظيم»؛ لأنه لم يكن يُحبّذ مفهوماً خالصاً للغة، بل على العكس كان قريباً من فوسلر وهامبولت، اللذان يَعْتَبِران اللغة قوةً حيةً وباقية في تَحوِّلٍ دائم. بعد ذلك بسنوات قمنا برفقته ورفقة رايموند ليدا بندوات حول هذه الموضوعات في معهد اللغات الذي كان يديره أمادو ألونسو.

عِندما عدتُّ مرةً من السّفر في القطار، حلمتُ بأنّني وجدتّ ذلك الأستاذ الذي كان يدرّسني في الثانوية يجلس في إحدى العربات، ومعه حقيبته المليئة بالاختبارات (الواجبات) المصححة، مثل هذا الوقت -منذ فترة طويلة!- عندما كُنّا معاً في القطار، سألته متأسفاً حول كيفية رؤيته للأطفال وهم يمرون في مهام صغيرة؛ «لماذا يقضي دون بيدرو وقته في تلك الأشياء؟»: «لأنّه ربما يكون من بينهم مَن سيكون كاتب المستقبل».

كم أنا مدين إلى هينريكيث أروينا! ذلك الرجل الأحدب العميق في فكره، الذي كان وجهه حزيناً دائماً، كان ينتمي إلى سلالة المفكرين الذين أوشكوا على الانقراض، وكان متعاطفاً مع مَن أطلق عليه ألفونسو راياس اسم «شاهد لا يقبل الرشوة»، الرجل القادر على عبور المدينة في منتصف الليل، لمساعدة أحد الأصدقاء، ولأجل فكرة الحياة النبيلة، ولتبادل الأفكار والقيم لمواجهة ذلك البؤس، وبشكل متناقض. عندما أكون برفقة ذلك المفكر الذي كان معي في مرحلة الثانوية، يتبادر إلى ذهني وجه أخي أومبورتو، المغامر الذي لم يدرس أبداً المراحل العليا، ولكنه كان قد فرض إعجابه واحترامه على كل الذين يعرفونه، على أولئك الذين يذهبون إليه ليشاوره إذا أرادوا أن يأخذوا قراراً صعباً.

لهذا السبب، عندما تفاقم المرض في أومبورتو أحزنني كثيراً أنني خدعته عندما أخبرته أن مرضه عبارة عن عدوى بسيطة، إذ إن الحقيقة هي أننا كلنا كنا نعرف أنه كان يعاني من سرطان في المعدة. إنّ ذلك الرجل الذي أعجبت باستقامته ونزاهته، يستحق أن يعرف ويواجه الحقيقة كما اعتاد أن يفعل دائماً، وبالتالي فقد اتخذت القرار الصعب للحديث معه.

لن أنس أبداً صمته، ولا تلك العيون المفتوحة على محجريهما، التي يبدو أنها

ترى النّهاية من بعيد، ولكن بدون كآبة، كما أنني لن أنس تلك الابتسامة التي كانت دائماً تعززه وتدعمه، أشعل سيجارة، ونحن لم نبك، إذْ لا ينبغي علينا فعل ذلك، كما لا يمكننا أن نواسي بعضنا البعض أمامه، فما زالت نظرة الحاجة لوالدنا في ذلك الوقت تحديداً تثقل كاهلنا.

الجميع بكى فراق أومبورتو، ذلك الذي كان بيننا، أومبورتو الذي قال عنه أحد أصدقائه المقربين أثناء دفنه: «لا شيء أقل من رجل مكتمل».

نعم، أخي العزيز، كنت ذلك النوع من الرجال الذين هم بحجم سانت إكزوبيري[8] ، مَن صارع في طائرته ضد العاصفة، بجانب عامل التلغراف، متحدين بصمت ذلك الخطر المحدق بهم وذلك الانتظار، أولئك الرجال الذين أقاموا مذبحهم وسط الأوساخ رغم صداقتهم الحميمية لمواجهة الفشل والموت.

(8) هو أنطوان دو سانت إكزوبيري، الطيار والكاتب الفرنسي الذي كتب قصته العالمية «الأمير الصغير» الموجهة للأطفال، والتي حاول من خلال نقد ما أطلق عليه «اللاأخلاقيات» المجتمع، توفي أثناء طيرانه في مهمة استطلاعية. (المترجم)

كانت سنوات مرحلتي الثانوية المضطربة، وزمن الآلام البائس، من الاكتشافات المهمة التي اكتشفتها.

في اليوم الأول من الدرس، راودني إلهام عجيب؛ ففي أحد المقاعد التي يصعب رؤيتها من بعيد، كان هناك فتى يجلس مرتعباً ووحيداً من سكّان إحدى القرى القريبة، يَنظر إلى الدون إيديلميرو كالبو، بملامح فارس هندي من الإقليم، طويل وبهيئة مميزة، ليُبرهن صحة نظريته الأولى.. بقيت مبهوراً بسبب ذلك العالم المثالي والشفاف، ما زلت لا أعرف أنني كنت قد اكتشفت العالم الأفلاطوني الغريب عن أهوال الحالة الإنسانية، إلا أنني استشعرت أن تلك النظريات كانت مثل الكاتدرائيات المهيبة، والتماثيل الجميلة في منتصف الأبراج المهدمة من فترة مراهقتي.

لتهدئة الفوضى الكامنة في روحي، قمتُ بتقليب عواطفي وقلقي في سلسلة من المذكرات، واليوميات، التي أحرقتُ جزءاً كبيراً منها عندما كنت أكبر قليلاً؛ بسبب اليأس الذي عشته، فبحثت عن مأوى في علم الرياضيات، وفي الفن، وفي الأدب، وفي التخيّلات الكبيرة التي وضعتني بدورها في حماية العوالم البعيدة والماضية. كانت مكتبة الجامعة واسعة جداً، وبالنسبة لي كانت غير مستكشفة، على الرغم من أنها كانت مُنظّمة بحكمة، فكنت دائماً أقرأ وأنا أرتعش، مدفوعاً بعواطفي وميولي، بقلقي وتلهفي وحدسي وبديهتي.

أتذكر مكتبات الحي التي أسسها رجال فقراء ومثاليون بجهودهم الكبيرة، بعد يوم كامل من العمل، فقد كانوا متشجعين للاعتناء بالفتيان بكل مودة،

كانوا متلهفين للفنتازيا وللمغامرات. من غرفتي المتواضعة الواقعة في شارع رقم ١٦، كنت قد استوليت على عوالم سالاغاري وخوليو بيرني، كما أنني كنت في وقت متأخر أتسلى في إبداعات عظيمة لبعض الرومانتيكيين الألمان: «اللصوص» لفريدريك شيلر، وبأعمال شاتوبريان، وبعمل جوتز فون بير ليشنغن، وغوته وعمله الذي لا مفر منه، ورثرو، وروسو. ومع مرور الزمن اكتشفت الشماليين: إيسبين، سترينبيرغ، بالإضافة إلى التراجيديات (المآسي) الروسية التي أثّرت فيَّ: دوستويفسكي، وتولستوي، وتشيخوف وغوغول، حتى المغامرة الملحمية لـ «السيّد» والممر الجميل لـ «لامنتشا»، تلك الأعمال التي كنت أعود إليها بين فترة وأخرى كمَنْ يعود إلى أرض حنّ إليها وهو في المنفى، حيث تحدث الأفعال الرئيسية للوجود والبقاء.

رواية الجريمة والعقاب التي كانت في غضون خمسة عشر عاماً رواية بوليسية، وجدتها بعد ذلك رواية نفسية بامتياز، حتى أنني اكتشفت في النهاية أنّ معظم ما جاء في الرواية قد كُتب حول المشكلة الأبدية للجرم والخلاص. مازلت أنظر أسفل الأغلفة، ألتهم بجشع ذلك العمل في طبعته الريفية، بترجمة ثنائية وحتى ثلاثية. ما زلت أسمع نفسي أضحك لأتسلى وبتهكم شديد مع ويلد الذي جُرِّد من النفاق الفكتوري، أو الرعشة التي شعرت بها بين صفحات بوي وقصصه الرائعة؛ أو مفارقات جيستيرون وغموض الأب برون.

مع مرور السنوات، كنت قد قرأت بحماس لكبار الكُتّاب في كل الأزمنة؛ فقد كرّست الكثير من الساعات للقراءة، فقد كان ذلك، بالنسبة لي، عبارة عن بحث يثير فيّ الكثير من الانفعال.

لم أكن على الاطلاق قارئاً لأعمال كاملة، ولم أوجه من خلال أي مساق منهجي، بل على العكس، ففي منتصف كل أزمة من أزماتي كنت أغيّر المسار، إلا أنني كنت أتصرف بشكل دائم أمام الأعمال الكبرى كأنني داخل في غمار نص مقدس، وفي كل فرصة تتكشّف لي معالم رحلة استهلالية، فالنّدوب التي بقيت في روحي تشهد بأن شيئاً من هذا قد تمّ، فالقراءات رافقتني حتى وقتنا الحاضر، وغيّرت حياتي بفضل تلك الحقائق التي يمكن للفن العظيم فقط أن يذخرها.

في العزلة التي لا بد أن أعيشها، كنت أستمع فجر هذا اليوم إلى براهمس، الذي كُنت أعود دائماً إلى وميضه من خلال أنين أحزانه، كان وقتاً قصيراً، إلا أنني متأكد بأنه يكفي ليكون بمثابة «عتبات المطلق» التي أبحث عنها.

أفكر في الأزمنة التي كانت فيها ماتيلد لا تزال قادرة على السير، جاثية على عصاها، عندما جلبها غلاديس إلى القاعة لتجلس إلى جانبي، ماسكة

بالوسائد. أتذكر أنني وضعت شيئاً لتشوبيرت، ولكوريي، أو بعض الموسيقى الأخرى التي كان أداؤها مناسباً في لحظات الحزن، كنا نسمع الموسيقى بينما ماتيلد أبدت رغبتها للذهاب إلى غرفتها لتستلقي، بعد ذلك، وقليلاً قليلاً غطّت في نومها، مع انحناء الرأس إلى الجانب الآخر، وأنا أنظر إليها بعيون دامعة، وبعد وقت استيقظت من نومها وسألت: «لماذا لم نذهب إلى البيت؟»، كان صوتها رقيقاً. «نعم -قلت لها بعد ذلك- سنذهب، ونتابع مسيرنا»، وبعد ذلك عادت إلى غرفتها بمساعدة غلاديس.

أتذكر جيّداً يوماً بعيداً من أيام عام ١٩٦٨م، عندما سافرنا مع ماتيلد إلى مدينة شتوتغارت، حيث تم منحي جائزة، وعندما وصلنا، قُمنا بالحجّ-فهذه هي الكلمة الملائمة، فبالفعل كانت لحظة احترام ديني- إلى توبنغن، ودخلنا إلى المدرسة الإنجيلية، حيث نظرنا متحمسين إلى المقعد الذي كان يجلس عليه الطالب الشاب فريدريك شيلن وزميله هيغل، وفي تلك اللحظات بقينا صامتين، وبعد ذلك وصلنا إلى بيت صغير للنجار زيمر، البيت الذي عاش فيه المجنون هولدرلين مدة ستة وثلاثين عاماً، محمياً بعطف ومودة ذلك الإنسان المتواضع، وهذه واحدة من الحقائق المطلقة التي تلخص البشرية، ومن الشرفة الخارجية كنا ننظر إلى جريان نهر نيكار، مثل الكثير من المرات التي كان ينظر فيها ذلك العبقري المجنون.

أظنّ أننا مررنا في وقت متأخر بنهر الراين، الذي استحضرنا من خلاله ماضي القصيدة السردية، وشعراء الملاحم وأبطال ولصوص وأساطير: رولاندو، الذي وصل متأخراً كثيراً إلى جزيرة نونينويرت، ليعرف فقط وبدون راحة أن حبيبته ما زالت ملتزمة بالعادات، ولتتعرف على لوينكرين وعلى قلعة كليبيس الشاهقة والمظلمة. في ليلة ممطرة من فصل الخريف نظرنا إلى بقايا القصور الرائعة، والحصون الخربة التي شهدت الصراعات المتوحشة، التي احتفظت بأسرار مذهلة أو جميلة للعاشقين المحاربين للوحدة وللخيانة، فهناك كان ديي فيندليشين برودير، البقايا المنخفضة من أبراج الأخوة الأعداء، وجدار الشكاوى، أي في الجزء العلوي من الجبل، باتجاه المنشأ، والأطلال القاتمة بين حبات البرد المتساقطة، وكان هناك أيضاً برج الجرذان، حيث كان المطران هاتو الثاني، بعد أن أمر بإحراق الفلاحين الجائعين، فأغلق على نفسه داخل البرج، ليكون طعاماً شهياً لديدان البق الفظيعة، حتى إننا رأينا من بعيد وادي لوريلا السحيق، ونظرنا إلى الأعلى، متجهين بنظرنا إلى فوق النتوءات الصخرية التي تتساقط فوق مياه النهر، كما لو أننا مازلنا نرغب في لمح الصورة المظللة للمشعوذة التي جاءت إلى الموت بغنائها.

بعد ذلك، بُعثت الحياة في شبابنا، لتلجأ إلى ذاكرتي المتشظية واحدة من

تلك الأغاني الألمانية التي قامت مدرّستي الألمانية المجنونة بتسجيلها لي مع موسيقى سكوتمان وبرامز وسكوبيرت، كنت لا أعرف إلا القليل من اللغة الألمانية التي بدأتُ بتعلمها عندما كان عمري ثمانية عشر عاماً، لكنني أتذكر القليل من التراتيل التي تقول تقريباً: لماذا هذه التكهنّات المتشائمة، يا قلبي؟

ظهرت الأطلال المهيبة أمام السائحين بكاميراتهم وساندويتش النقانق الخاصة بهم، كالفارس الذي بعد تقلباته المؤلمة، وبلباسه المتسخ والممزق، يحاول أن ينقل لنا رسالة جميلة ومثيرة للشفقة، في وسط التزاحم والصراخ والكلمات النابية، وليتحقق كل ذلك، على الرغم من كل شيء، وبفضل القوة الباطنية للشعر.

عندما كان عمري ستة عشر عاماً تقريباً، كنت مرتبطاً بمجموعات من الفوضيين والشيوعيين؛ لأنني لم أتحمل أبداً الظلم الاجتماعي، لاسيما وأن بعض الطلاب كانوا أبناء عمال ومهاجرين اشتراكيين، من أولئك الذين دخلنا معهم طيلة الليل في نقاش لا نهاية له، وكان ذلك النقاش عنيفاً في بعض الأحيان، وأخوياً في أحيان أخرى، وكانت نقاشاتنا تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح الباكر.

إحدى تلك الاجتماعات كان تدور حول درس لــ هيلدا شيلر، ابنة الجيولوجي الألماني والتر شيلر، التي شكّلت مجموعة من الفتيات أطلقت عليها اسم مجموعة أطلنطا، وقد اهتمت تلك المجموعة بدراسة مختلف العلوم من الرياضة وحتى التاريخ والأدب، وفي إحدى تلك الاجتماعات، كان هناك شابة تستمع إلى كل شيء أقوله، تبحلق عينيها الواسعتين والمثبتتين عليّ، كما لو أنني -أنا المسكين- كنت نوعاً من أنواع الآلهة، تلك الفتاة كانت ماتيلد.

تذكرت في ذلك الوقت مظاهرات الأول من أيار، اللقاء الاحتجاجي المعمّق بالحزن بسبب سقوط شهداء شيكاغو، والجنازة الخالدة للأبطال المتواضعين، من أولئك العمّال الذين كانوا يكافحون ثماني ساعات في أعمالهم، وبعد ذلك يُحكم عليهم بالإعدام: ألبيرت بارسونس، وأدولف فيسشر، وجورج إنخيل، وأوغست سبيس، ولويس لينج الذي بلغ عمره ثلاثة وعشرين عاماً عندما قتل بانفجار أنبوب صغير من الفُلْمينات الزئبقي الذي وضع في الفم، أما الأربعة المتبقون فقد ماتوا شنقاً، وفي وقت لاحق أثبت البحث أنهم كانوا أبرياء من قضية إلقاء القنبلة على الشرطة. أعلن هؤلاء العمال بأنهم فخورون بصراعهم من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، وشجبوا سلوكيات القضاة والنظام الذي كانوا نموذجيين في تمثيله، ولم يُنكروا قناعاتهم حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم. بعد ذلك بسنوات كثيرة، اعترف الحاكم ببراءة هؤلاء الرجال، وتم وضع نصب تذكاري لهم، أطلق عليه اسم «قبر الشهداء».

تم تنظيم المظاهرات من قبل الجنرال ساندينو، وساكو الرجل النبيل والشجاع، وفانزيتي، جمعت المظاهرات ما يُقارب المئة ألف من العمال والطلبة، كانوا كلهم تحت راية العلم الأحمر الخاص بالاشتراكيين، أما الفوضويون فكانوا تحت الراية الحمراء السوداء، قام العالم كله باحتجاجات للتضامن مع شهيدي الحراك، اللذين حكم عليهما بالإعدام بسبب جريمة لم يقوما بارتكابها، وهو مع حدث مع عمال شيكاغو أيضاً، عندما أجبرت محاكم أمريكا الشمالية بالاعتراف ببراءتهم، وحتى اللحظة التي كانوا يجلسون فيها على المقاعد وهم مربطين ويعاملون بعنف، كان القضاة قد أعلنوا عن براءتهم، ومع ذلك كله تم تنفيذ الحكم بإعدامهم، فماتوا بشجاعة وكرامة، وبعد ذلك بفترة زمنية عُرض فيلم أمريكي ضخم يهدف إلى إظهار حقيقة ما جرى، مظهرين من خلاله رسالة مؤثرة لــ فانزيتي كان قد كتبها إلى ابنه، يقول فيها: «ابني العزيز، نمت معكم أياماً وليالي. لا أعرف إن كنت مازلت على قيد الحياة أم أنني متّ. كنت أحضنك وأمك، عذراً يا بنيّ لهذا الموت الظالم الذي سيتركك قريباً بدون أب؛ فاليوم يمكنهم قتلنا، ولكنهم لا يستطيعون تحطيم أفكارنا، إذ ستبقى محفوظةً لأجيال المستقبل، للشباب من أمثالك. تذكر يا بنيّ، أن السعادة التي تشعر بها وأنت تلعب لا تدخرها كلها من أجلك، حاول أن تفهم الآخرين بتواضع، ساعد الضعفاء، واسِ مَن يبكون، وساعد المضطهدين، والمظلومين، فهم مَنْ سيكونون لك أفضل الأصدقاء. وداعاً زوجتي العزيزة، وداعاً بنيّ. رفيقكم»

بارتولومي فانزيتي

كانت المناقشات والنزاعات بين الفوضيين والماركسيين متوترةً، فهذه كانت عاداتهم، ومع ذلك فقد كان لديّ زملاء من كلا الجانبين حتى اليوم - من أولئك الذين صمدنا وتحملنا من أجلهم- لدينا محادثات طويلة تُذكّرنا بتلك السنوات البطولية.

بمقدار المشاعر التي انتابت ذاكرتي بذلك الزمن الذي تم خلقه -أو اكتشافه في عمق روحي- لذلك الأمي كارلوتشي، الذي يعتبر واحداً من أولئك الفوضيين اللطيفين جداً، من الذين ذهبوا من قرية إلى أخرى مشياً على الأقدام حتى الوصول إلى مكان إقامتهم، حيث اعتادوا أن يكون لديهم مكاناً للمبيت خاص بأولئك الوجوديين الذين يلقون خطاباتهم الدينية في الليل حول الموقد، كم كانت الفوضوية جميلة!، كارلوتشي ذلك الرجل الكبير، الذي فقد كامل قوته بسبب التعذيب الذي تعرض له، وفي محل إقامته، كان يشرح بكلمات واهنة لفتى اسمه ناتشو، قادم من عائلة أرستقراطية، لماذا كانت الفوضوية رائعة؛ حكى له كيف أنّ الرجال يغلقون على فرس النهر الضخم

والبريء؛ ليخدمهم في صناعة الفرح على وجوه الفتيان، بعيداً عن مروجه الأفريقية، وعن شروق شمسه الجميلة، وعن حريته البعيدة.

وفي شهر أكتوبر من ذلك العام، كان مازال للثورة الروسية وهجها الرومانسي، في تلك الفترة التي استطاع الرفاق الشيوعيين إقناعي، وقالوا لي: إن الفوضيين كانوا خياليين وأنهم لن يستطيعوا أبداً تحقيق السيطرة على السلطة كما كانوا يقولون في الإمبراطورية القيصرية، وبالنّظر إلى أن الستالينية وجرائمها لم يبدآ بعد، شعرت حينها برومانسية تعصبيّة، بأن ثورة البروليتاريا «طبقة العمال» ستؤدي في النهاية إلى جلب رجال العالم المحض، الذي كان من الممكن لمحه في علم الرياضيات.

ابتعدت عن الأديرة الجامعية وانضممت إلى الشباب الشيوعيين، حيث قمتُ برفقتهم بجولة على حافظات الطعام الضخمة في أرمور وسويفت، التي تقع في بيريسو، فهذه القرية تعتبر من ضواحي لابلاتا، حيث عاش العمال في البؤس المفزع، أولئك الذين كانوا يتكدسون في بيوت مهملة من الزئبق «الخارصين»، بين المستنقعات الخضراء المثيرة للاشمئزاز، ليخاطروا بكل شيء في سبيل زيادة ساعات عملهم، ما زلت إلى اليوم أتذكر تلك الأخوّة بين العمال والطلاب، لأستعيدها بعاطفة جيّاشة.

في عام ١٩٣٠م حدث أول انقلاب عسكري، كان انقلاباً مفزعاً ومتعطشاً للدماء، ذلك الانقلاب الذي كان نتيجة للخطر الذي معناه بالنسبة للجيش وللرأسماليين «التحركات الاجتماعية»، إنها ديكتاتورية الأوريبورو التي ستكون نذيراً للانقلابات المتعاقبة داخل الدولة، التي عانى بلدنا منها كثيراً.

كان ذلك الانقلاب هو الانقلاب الأول والحاسم في حياتي، وبالتالي كان ينبغي عليّ الدخول في سَرِيَّةٍ ما؛ أولا بسبب وضعي كمقاتل -دائما كنت أحتقر الثورات من الصالون- وثانياً لأنني وصلت إلى منصب في أن أكون سكرتيراً لــ «الشباب الشيوعيين»، وبالتالي كنت أبحث باهتمام عن المقموعين، وبسبب الاضطهادات اضطررت إلى الفرار إلى لابلاتا، فقطعت دراستي وهجرتُ عائلتي، ليستقر بي المقام في أفيلانيدا، مركز العمل الأكثر أهمية، ولحسن الحظ أنني لم أقع أبداً في يد «المجموعة الخاصة» الشريرة التي كانت ضد الشيوعيين، تلك المجموعة المشهورة بتعذيبهم، والتي كان أفرادها يراقبونني بشكل دائم، فاضطررت إلى تغيير السكن والاسم بين فترة وأخرى، وفي إحدى المرات نجوت بأعجوبة بالقفز عبر نافذة البيت الذي كنتُ مقيماً فيه، ومن الأسماء التي كنت اخترعها وأتخفى وراءها، اسم فيرّي، ربما -الآن أفكر بذلك- اشتُق بغير وعي من عائلة فيرراري، وهي عائلة أمي، كان التشدد خطيراً جداً ولا يحدد وفق طبيعة العمل، بل كان يُوجِدُ أيضاً معلومة نظرية

إجبارية، من تلك التي درستها ليس فقط عن ماركس وإنما ما درسته أيضا لكتّاب آخرين.

كنت أحدّث العمال عن الحرية، إلاّ أنّهم اعتقلوا؛ بسبب ممارساتهم في الإضرابات، نعم لقد حدثتهم عن العدالة، إلا أنهم كانوا مكبوتين ويعذبون بطريقة وحشية، فالمثول أمام القضاء والموارد الدستورية الأخرى سُخرت للسخرية على الممارسات التي كانوا يقومون بها كل يوم، حتى إنّ كبار قادة الفوضويين، أمثال: سيبيرينو دي جيوفاني وسكارفو كانوا قد تعرضوا لتهديدات بالقتل، وبالتالي كان خطر الموت يطاردهم. كنت قد تعرفت على جيوفاني في مركز أثينوم الثقافي، فعلى الرغم من أن مظهره يوحي بأنه معلم، بمسدسه وما يحيط به من الحرس، فقد وصل به المقام إلى أن يكون شخصية أسطورية، وقع العُمّال في الأسر، ليُحكم عليهم بعدها بالإعدام، ماتوا جميعاً، وهم يهتفون: «تحيا الفوضى!»؛ إنّه الصراخ الذي مازال يراودني ويثيرني بعد سنوات من وقوع تلك الحادثة.

لم يبق لي شيء لأواصل العيش في السكن الواقع في شارع بوتوسي، في ذلك البيت الذي دلّني عليه صديق عزيز عليّ، فهو الذي أحضرني إليه بعد زمن البحث، ووصلت ماتيلد التي كان عمرها في ذلك الوقت تسعة عشر عاماً، هاربة من المنزل الذي أحببتها فيه؛ وذلك بهدف مرافقتي إلى بوينس أيرس، ترافقني «أنا»، الذي كنت حينها مُقصراً في كل ما يتعلق بشؤونها؛ بسبب انشغالي بالقتال في السَرِيّة ضد ديكتاتورية الجنرال أوريبورو، من أجل عالم لا بؤس فيه ولا هجران. كانت المسألة عبارة عن خيال واضح، فبدون خيال لا يوجد أي شاب يمكنه أن يعيش في واقع فظيع، تحمَّلنا هناك الجوع كثيراً، إذ إننا كنا نشارك بعضنا قطع الخبز وبعض اللحوم المطبوخة لشاه وجدناها ميتة، باستثناء الأيام التي نكون فيها محظوظين، الأيام التي تكون فيها السيدة إيسبيرانثا المسؤولة عن الإعاشة، تلك السيدة التي كانت تدق علينا الباب لتعطينا طبقا كبيراً من الطعام.

في ذلك الزمن من الفقر والاضطهاد انفجرت أزمة خطيرة جعلتي أبتعد عن ذلك الحراك؛ بسبب المخاطر التي تحوم حوله.

أعضاء الحزب الذين كانوا بدون شك يراقبون أي «انحراف»، يحذرونني من الدلائل المحددة والمشتبه بها. في المحادثات مع الرفاق المخلصين تمسكت أنا بذلك الحوار الذي كان مطبّقاً على الحقائق الداخلية، ولكن ليس على طبيعتها، بالطريقة التي تكون فيها «مادية الجدال أو الحوار» متناقضة. شخص ما لا يعرف العقلية الشيوعية المتشددة يمكنه أن يفكر بأنّها ليست خطرةً، بينما هي في الواقع خطرة جداً بالنسبة للقادة الذين يعتبرون جريمة الانفصال

عبارة عن نظرية ممارسة، سيكون شرحاً طويلاً في ماذا أسست قواعدي، الشيء الوحيد الذي يمكن أن أقوله هو أن هذا حدث في عام ١٩٣٥م، وبعد ذلك بسنوات طويلة، في اجتماع نظري عُقد في موتواليتي في باريس، نوقشت هذه المشكلة بين كبار الفلاسفة، مثل: سارتر وآخرين، في ذلك الاجتماع الذي عُقدَ تحديداً للشيء نفسه.

بصرف النّظر عن ذلك، فإنّ تلك الفرضيات كانت مخاطرة كبيرة جداً؛ لأن الماركسية -اللينينية كانت مجموعة قوية ولا بدّ من وجودها، فقد قرر الحزب -الكلمة التي تُكتب دائماً بحروف كبيرة- إرسالي لعامين اثنين إلى المدارس اللينينية في موسكو، حيث يمكن أن يُعالجَ أحدهم أو ينتهي به المطاف في معسكرات العمل أو في مستشفى الأمراض العقلية، وبدون شك كان سينتهي بي المطاف في واحدة من هذه المجالات المتناقضة، بالنّظر إلى القناعة العميقة التي لدي حول تلك الفلسفة التافهة، ولروح التضحية التي تولاها المقاتلون، ولذلك كلّه فقد قبلت ماتيلد -بحزن- سفري إلى الاتحاد السوفيتي لسنتين -وربما للأبد- وبقيت هي مختبئة في بيت أمي.

قبل الذهاب إلى موسكو، كان ينبغي عليّ الذهاب إلى المؤتمر الذي انعقد ضد الفاشية والحرب، والذي ترأسه في بروكسل هنري باربوسي، وكان بتنظيم من الحزب نفسه، وتحت رقابة مُشددة، غادرت من مونتيبيديو، وعبرتُ في الليل نهر دلتا في لابلاتا بقارب للمهربين، لأتابع رحلتي بعد ذلك في سفينة باستخدام وثائق مزوّرة حتى أمبيريس، وفي النهاية أخذتُ القطار وصولاً إلى بروكسل، كان هناك إمكانية للاستماع لأناس من ستشوتشبوبند، ومن النمسا، وإلى المقاتلين الذين جاءوا من ألمانيا، حيث كانت الهتلرية حينها متصدرة للمشهد، وضعوني في غرفة كانوا يطلقون عليها اسم Auberges de la Jeunesse، وكان معي فيها شريك، كان قد عرّفني على نفسه باسم مستعار هو بيير. كان بيير قائداً في «اللجنة المركزية للشباب الفرنسيين»، ولديه الطاعة العمياء للنظرية، الأمر الذي جعلني متوجساً ومستعداً لكل ما هو قادم، لأنه لا تُرتكب في الحزب مثل هذه الأخطاء، سقط ذلك الفتى المقاتل بعد ذلك في أيدي الغوستوبو، ليموت بعدها بتعذيب وحشي.

في واحدة من تلك الحوارات التي كنا نجريها قبل الخلود إلى النوم، ظهرت مناقشة حادّة بيننا، وارتكبتُ في أثناء ذلك خطأ خطيراً بأن صرحت بشكوكي حول تلك المشكلة الفلسفية. في صباح اليوم التالي، أخبرت شريكي هذا بأنني أشعر بألم حاد في معدتي، وأنه ينبغي عليّ الخروج حتى يستكين الألم. بعد ساعة تقريباً أو أكثر، عندما أيقنت أنه لن ينس، قمت بإصلاح حقيبتي وحضرت فيها كل ما يلزمني وهربت إلى باريس في القطار. كانت «العمليات»

الشريرة للإمبراطورية الستالينية قد بدأت بالفعل، فبالكاد استطعت أن أجري محادثة مع بيير، لأدرك بعد ذلك بأنه ذهب إلى موسكو ولن يعود أبداً، فكل الحوارات والتجارب التي عرفتها من خلال المقاتلين الذين كانوا من بلدان مختلفة، انتهت بسبب تشقق في شكل لا يُغيّر البناء الهش الذي انهار في ذهني.

كما أنني كنت قد ذهبت إلى بروكسل بشكوك خطيرة حول ديكتاتورية ستالين، كان صديق لي في بوينس آيرس متعاطفاً مع الحزب، قد أعطاني عنوان تروتسكي أرجنتيني كان يعمل مديراً لمؤسسة فرنسية، والذي بعد ذلك بسنوات سيموت داخل دبابة في الحرب الأهلية الإسبانية، كان قد جعلني على تواصل مع حارس إيكولي نورمالي سوبيري، صديقي الشيوعي، الذي عرض عليّ النوم في كوخ، لأنام بعد ذلك على واحدة من تلك الأسرة الكبيرة في باريس، إلا أنّ البيت لم يكن فيه تدفئة، فكان البرد شديداً جداً في ذلك العام ١٩٣٥م، وبالتالي فبالإضافة إلى الأغطية الموجودة، فإننا تغطينا بعدد من الأشخاص. تجولت خلال النّهار على أطراف شوارع باريس، دون النظر إلى الأراضي التي يمكن أن تجرّني إلى الكارثة، حتى بعد ظهر أحد الأيام، دخلت إلى مكتبة جيبرت، التي تقع على شارع Saint-Michel العريض، وسرقتُ كتاباً في تحليل الرياضيات لــ إيميل بوريل وهربتُ به بعد أن طويته داخل معطفي، أتذكر ذلك المساء الشتوي البارد، عندما كنت أقرأ في المقتطفات الأولى منه، مع رعشة بيقين داخلي بأنني سأعود إلى الدخول إلى معبد ما بعد رحلة طويلة غامضة من العنف والذنوب، كان ذلك المعبد المقدس مزيجاً من الوهج، والقبول الجماعي والسلام الذي منذ وقت كانت تتوق إليه روحي: الفلك الرياضي الاسم الذي أطلقته على مداخلة لي للمرة الثانية.

بالعودة إلى البلاد، تمزقتُ روحياً، وانغلقتُ على نفسي في «معهد الفيزياء -الرياضيات»، وبعد ذلك بسنوات قليلة، أنهيت أطروحتي الدكتوراه، حَضّرت نفسي هناك لمقاومة الإهانات والشتائم وظلم الآخرين لي؛ بسبب «خيانتي» للشيوعية، بالمعنى الدقيق، عندما كان كل شيء عكس ذلك كله. الخائن الأكبر هو ذلك الرجل مشوه الخلقة، الطالب الكنسي السابق، الذي تخلص من كلّ أولئك الذين قاموا بالثورة الحقيقية، حتى الوصول إلى الأجنبي تروتسكي نفسه، الذي كان واحداً من أكثر الشخصيات اللامعة، ويعدّ من أجرأ الثوريين في الأوقات الأولى من بداياتها؛ حيث قاتل في المكسيك لصالح المحور الستاليني.

في أثناء الأزمة الجمعية للحضارة التي قامت في الغرب بسبب صدارة التقنية والمواد الأساسية الجيدة، كان آلاف من الفتيان يُصوّبون أنظارهم إلى

الثورة الكبرى في روسيا، التي بدت أنها إعلان لحرية الإنسان، لم نفعل ذلك بعد أن درسنا الرأسمالية بدقة، ولا لعدم اقتناعنا بصحة المادية الجدلية، أو لفهم القيمة المضافة، وإنما ببساطة لفهم القوة؛ لأننا وجدنا في تلك الثورة حراكاً نحو التحرير، ذلك الحراك الواسع والرومانتيكي. كانت كلمة العدالة وعداً للوصول إلى امتلاك مكانة لم يمنحها التاريخ، مطلقاً، من قبل. إنّه الصراع من أجل المحرومين، لتوضع لنا العبارة العجيبة: «الفانتازيا تطوف العالم» تحت راية المطالبة العادلة.

في عصر «الازدهار» المشهور، إلى جانب قيمه الأدبية، اتهمني الكثير من الكُتّاب بخيانة الشيوعية، قاصدين بذلك تجاهل أنني كنت أعيش ذلك الاستسلام والهلاك، بالإضافة إلى خيبة الأمل من رؤية كيف أن الستالينية أفسدت المبادئ التي تُحرّك الثناء المقصود، مع العلم أنّ بعض هؤلاء الشيوعيين الجالسين في قاعات الاستقبال كانوا مرفّهين، من أولئك الذين يُطلق عليهم بالفرنسية اسم «يسار الكافيار»، البعيدون عن الخطر، والمتظاهرون من وراء مكاتبهم في غرف أوروبية مريحة، في خسّة، ويكونون دائماً في المؤخرة لجبنهم وخوفهم، وآخرون، بعد أن كانوا شيوعيين، أصبحوا في نهاية الأمر من رواد الأدب.

ومع ذلك، فقد حافظوا على صمتهم إزاء الفظائع التي ارتكبها النظام السوفيتي، من التعذيب والقتل، كما يحدث عادة، فقد وقعوا بكلمات كبيرة لصالح الإنسان، وبالتالي كان لدى كامو سبب ليقول إنه «دائماً يوجد فلسفة لعدم وجود القيمة»، لقد احتفظوا بالصمت عندما كانوا يستطيعون وعندما كان ينبغي عليهم أن يقولوا أشياء بدون خوف من المعارضة، ذلك ما توجّب عليهم فعله في الاجتماعات، إلا أنه لا يمكن الدفاع عنه في الأعمال التي تُشرّف والقيم التي أفقدت الكثيرين حياتهم بطريقة مروّعة وقاسية، إذن، لا يوجد ديكتاتورية سيئة وديكتاتورية جيدة، فكلاهما فاحش، كما لا يوجد أيضا تعذيب فظيع وتعذيب مفيد، كما أنّ الصراع ضد الرأسمالية لا ينبغي أن يكون معيقاً لرفض الأعمال التي قوّضت كرامة المخلوق البشري، أياً كان اسم الأيديولوجيا الذي يُقصد به تبريرها.

كم كان الوضع مختلفاً لو أن «الاشتراكية الطوباوية» لم تُدمرها «الاشتراكية العلمية» لماركس!

يُعتقد خطأً أن الفوضويين هم أرواح مدمرة، كما لو أنّهم رجال يجلسون بجانب الطيار الذي يحمل في جعبته قنابل، بالطبع، كما في كل مؤسسة تحضر علامة الوجود البشري، فقد تسلل المجرمون والمسلحون في ذلك الحراك -بعض هؤلاء كنت قد تعرفت عليهم في السنوات الثلاثين-، لكن ذلك لا ينبغي

أن يجعلنا ننسى أولئك الذين كانوا نبلاء، الذين يشتاقون إلى عالم أفضل، حيث لا يصبح الرجل ذئباً متوحشاً، ذلك ما تنبأ به هوبز.

هناك مغالطة أخرى متكررة، هي اعتبار أن هذه الأرواح الثائرة كانت مستاءةً اجتماعياً، والتي كانت بالفعل لا سلطوية من الأمير باكونين إلى الكوندي تولستوي، مروراً بالشاعر شيلي، كوندي ساينت سيمون، وبرودهوم، وإلى حد ما نيتشه، والشاعر وايتمان، وثورو، وأوسكار ويلد، وديكنز، وفي زمننا السيد هيربرت ريد، والمعماري لويد رايت، والشاعر ت إس إليوت، ولويس مونفرود، ودينيس دي روغيمونت، وألبرتو كامو، وإيبان، وشويتزر، وإلى حد كبير برنارد شو، والكوند بيرتراند روسل، وقبل سنوات، كان هناك كتاب «مدينة الشمس» لـ توماسو كامبانيلا، و «إيتوبيا» لـ توماس مورو. وكل أولئك كانوا مرتبطين بكبار المفكرين المتدينين من أمثال إمانويل مونوير -الذي ترتبط «شخصيته» كثيراً بمفهوم الفوضوية-، وبالمفكرين اليهود من أمثال مارتين بوبر.

ربما، بسبب معلوماتي الفوضوية، كنت دائماً مثل نوعٍ من المتصيدين المنعزلين، منتمياً إلى ذلك النّوع من الكُتّاب الذين كما أشار إليهم كامو بقوله: «لا يمكن للمرء أن يقف إلى جانب مَنْ يصنعون التّاريخ، وإنما في خدمة الذين يعانون منه»؛ إذْ ينبغي للكاتب أن يكون شاهداً لا يرتشى في زمانه، مع التحلي بالشجاعة لقول الحقيقة، والنهوض ضد الحكم كله الذي يعمي مصالحه واهتماماته، ليغيّب عن الأنظار قدسية الإنسان، كما ينبغي الاستعداد للقيام بالأعباء التي اشتقَّت من المفردة الشاهدة على تحذيره: من أجل قائمة الشهداء، الطريق الصعب الذي ينتظره: سيأهلونه الأقوياء للشيوعية؛ للمطالبة بالعدالة من أجل ضحايا الظلم والجوعى، وسيكون الشيوعيون علامة الرجعية لطلب الحرية واحترام الإنسان، وفي هذه الازدواجية الهائلة سيعيش الإنسان ممزقاً ومجروحاً، ولكن ينبغي عليه الثبات بأظافره وأسنانه.

إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنّ تاريخ الأزمنة القادمة سيكون موضع اتهام لوجود الغدر، الذي كان أكثر قيمة من الظرف الإنساني.

استيقظت مصدوماً، لم تتملكني أحلام سعيدة، إلا في السنوات الأخيرة؛ ربما لأن شعوري كان نقياً بالخيالات، كما أنّ الرسم ساعدني على أن أحرر نفسي من الضغوط الأخيرة، على اعتبار أنه أكثر النشاطات صحية، بالإضافة إلى أنّه يسمح بالتخلّص الفوري من رؤيتنا المرعبة، بدون وساطة الكلمة، ومع ذلك، لا يزال في موضوع الكلام تحمل بعض اليأس، إنّه الكون المظلم الذي يصدر منه فقط ضوء إنارة قليلة الكثافة.

كنتُ أحلمُ من وقت لآخر بلجج البحر العميقة وصولاً إلى قيعان غواصة مخضرة وزرقاء إلا أنّها شفافة، كان هناك ليالٍ أحلم فيها بتيارات مائية كبيرة تسحبني، إلا أن ذلك ليس شيئاً محزناً ولا هو شيء محرج، بل على العكس، فإنني أشعر أثناء ذلك بنشوة القوة.

بينما أنتظر وصول سيلفينا بينغوريا، فإنّي أعود إلى رسم ما كنتُ أعمل عليه ليلة أمس حتى وقت الظهر، فهو الشيء الذي يمكن أن يجعلني بخير، ويبعدني عن الحزن وأهوال العالم اليومية. جذبتني رائحة التربنتين، لتعود روحي حينها إلى ذلك الزمن الذي عشته مرهقاً بين الكون التجريدي للعلوم والحاجة للعودة إلى العالم المضلل وغير الروحي، إلى ذلك العالم الذي ينتمي إليه الرجل المادي.

عندما أنهيت دراستي الدكتوراه في العلوم الفيزيائية والرياضيات، منحني البروفسور هوساي، الفائز بجائزة نوبل للطب المنحة التي تمنحها «جمعية العلوم المتقدمة» سنوياً، لترسلني تلك الجمعية بدورها إلى العمل في مختبر كوري Core.

وهكذا وصلت مرة ثانية إلى باريس، وتحديداً في عام ١٩٣٨م، ولكن هذه المرة كنت رفقة ماتيلد وصغيرنا خورخي فيدريكو، مع مَن عاشوا في منازل صغيرة مهملة تقع في روي دي سوميرارد.

تزامنت فترة العمل في المختبر مع منتصف العمر، الذي وفق الجانب المظلم فيه، يعكس عادة الإحساس بالوجود، خلال ذلك الزمن من التناقضات، كنت من الصباح الباكر أُدقَنُ بين الإلكتروميترو وأنابيب الاختبار، ومع حلول المساء أكون في البارات مع المنتشين الغامضين. في الدومي وفي دويكس ماغتوس، كنت في حالة سكر مع أولئك المبشرين بالفوضى الطاغية، أمضينا ساعات من العمل في «الجثث المشرحة».

من إحدى الوسائل التواصلية التي كنت أتذكرها، تلك التي قمت بها مع ذلك العالم الذي سيفتنني فيما بعد ، كان قد حدث ذلك في مطعم إغريقي، متسخ لكنه رخيص جداً، حيث كنت قد اعتدت على تناول وجبة الغداء فيه مع ماتيلد،

وفجأة رأينا دخول شخص ما من الملايو، طويل ونحيف، فخافت ماتيلد بأن يجلس ذلك الشخص معنا، إلا أن ذلك ما فعله الرجل في نهاية الأمر، وبادر بالحديث أمام زوجتي، قال بلهجة كوبية مميزة: «لا تخافي سيدتي، فأنا شخص طيّب»، وهكذا بدأت الصداقة مع ذلك الرسام الاستثنائي، الذي كان اسمه ويفريدو لام، وقريباً سأكون على صلة بكل تلك المجموعة السريالية لبريتون، المجموعة التي تضم أمثال: أوسكار دومينغيث، فيريت، مارسيل فيري، ماتا، فرانثيس، وتريستان تاثارا.

في صباح أحد الأيام وصلتُ إلى مختبر سيسلينا موسين، ومعي ماتيلد، التي قمتُ بتقديمها إلى سادوسكي، وعلى الرغم من الأهداف المضمرة، إلا أنها كانت تعمل بالأشعة الكونية، ردعتها لتبقى مساعدتي وقدمتها إلى إيريني خوليوت كوري، ذلك الذي قبلها على الفور، وبين سديم الذكريات رأيتها واقفة، كانت وقفة مستقيمة ومميّزة، ترتدي مئزراً أبيضاً، وأنا كنت أراقب بقلق بعض التغيّرات في شخصيتي. إيريني كوري نفسها، كواحدة من تلك الأمهات اللواتي يخفن من عرقلة أبنائهن لهن في الليل، أولئك الذين يأتون لتنبيهها وهم شبه نائمين، رأتني أثناء وصولي متعباً ومهلهل الثياب، في ساعة منتصف النّهار. مسكين، لا أعرف أن الدكتور جاكي، الرجل الجدير بالاحترام قد بدأ بالاحتضار بين مخالب الشيطان السيّد هايدي، خلال الصراع الذي ناقش لب قضية روبرت ستيفنسون نفسه.

كانت الجهود القديمة في بعض المناطق المظلمة، تقوم على تحضير الدراسة التجريبية لبعض الظواهر الكيميائية التي ستبعدني بشكل دائمٍ عن مملكة العلوم غير الملوثة، بينما يُفكّر المؤمنون في الأعياد الرسمية للمعابد بصلواتهم، والفئران الجائعة تلتهم بشراهة مطلقة الأعمدة، لتهدم كاتدرائية النظريات، وبالتالي، فقد بدأت بالفعل الأزمة التي ستبعدني عن العلوم؛ لأن روحي التي كانت محكومة، وبشكل دائم، بحركة البندول، بالتناوب بين الضوء والظلام، وبين الترتيب والفوضى، من الأبولونيين (أبولو) إلى الديونيسوسيين (ديونيسوس)، وسط تلك الشخصية الرديئة لروحي، وجِدتْ الآن إرباكا بين الشكل الأكثر عقلانية والممثل بالرياضيات، والشكل اللاعقلاني الأكثر دراماتيكية وعنفاً.

هناك الكثيرون ممن سألوني بحيرة عن الكيفية الممكنة التي جعلتني أعدّ أطروحة الدكتوراه في العلوم الفيزيائية والرياضيات، علماً بأن هناك أشياء مختلفة شغلتني أكثر من ذلك، كالانشغال بالروايات الخيالية، كرواية «تقرير حول العميان»، بالإضافة إلى هذه اللوحات الرهيبة التي نشأت من اللاوعي. في كثير من الحالات، وخاصة في هذه الفترة من وجودي، أتيح لي أن أعبّر عن

تلك الأمور التي تستدعي سؤالي عن ماذا أتحدث أو ماذا أمثّل، هو السؤال نفسه الذي يطرحه البعض بعد الاستيقاظ من أحلامهم، وخاصة إذا كان كابوساً؛ حيث يكون الكثير منه غير منطقي ومتناقض، علماً بأنه في الحلم يمكن أن يُقال أي شيء سوى أنه كذبة.

هو ذلك الذي يفعله الرجال في وجودهم المزدوج: ليلاً ونهاراً؛ موظف مسكين قد يحلم في ليلة ما أنه قام بقتل رئيس عمله طعناً بالسكين، وخلال اليوم يلقي عليه التحيّة باحترام، ولذلك، فإنّ الوجود الإنساني متناقض في الأساس، فحتى ديكارت نفسه، حجر الزاوية للعقلانية نفسها، أنشأ مبادئ نظريته التي كانت من ثلاثة أحلام تراوده، إنها بداية جميلة لمدافع عن العقل!

الشيء المشابه هو الحالة الرديئة التي كان يمر بها إسيدور دوكاسي، أحد أرباب السريالية، الذي في إحدى أغانيه الأولى، التي شاعت بالفعل، مَنْ يعرف لماذا هذا الدفع الساخر- في الكومتي دي لاوترىامونت- مدح الرياضيات، ليقرّبها بعدم الاهتمام أو ربما بازدراء، يقول: «»آه، الرياضيات قاسية، وأنا لن أنساك، منذ دروسك الحكيمة، الأكثر حلاوة من العسل المصفى في قلبي، مثل موجة منعشة؛ أنا أتنفس بغريزية، من الأصل، لأشرب من نبعك، الأكثر قدماً من الشمس، والذي مازلت أذكر كيف تجرأت على أن أدوس الأرض المقدسة لمعبدك المقدس، أنا، الأكثر إيماناً ببداياتك»

هناك الكثيرون ممن كانوا في وسط الاضطرابات الداخلية يبحثون عن المجد في الجنّة الخفيَة، الشيء نفسه الذي فعله الرومانسيون من أمثال نوفاليس، ومَن تلبَّسهم الشيطان من أمثال المهندس دوستويفسكي، وغيره الكثيرون ممن قد تخصصوا بالفن في نهاية الأمر، مثلي أنا، كما الآخرون، فقد سمح لي الأدب بالتعبير عن مظاهر فظيعة ومتناقضة في روحي، تلك التي كانت ملتبسة في تلك المساحة المظلمة، إلا أنها كانت حقيقية دائماً ، لقد قاتلوا مثل أعداء مقاتلين. الرؤى التي عبرت عنها بعد ذلك في الروايات التي مثّلتني في تحيّزاتها أو تطرفها، وتلك التي غدرت بي أيضاً، لأذهب بعيداً جداً عن وعيي الذي يوبخني، والآن، بما أن رؤيتي ضعفت، فقد منعتني من القراءة والكتابة، فعدت إلى نهاية وجودي، إلى ذلك الشغف الآخر: الرسم، ذلك الذي جرّبته، ليبدو لي أنه المصير الدائم الذي يقودنا إلى ما ينبغي أن نكون عليه.

وسط عدم الاستقرار المفزع في ذلك العصر، تعرفت على شخص غريب هو الرسام الإسباني الكبير، وفي الحقيقة هو الرسام الكناري أوسكار دومينغيث، الذي كنتُ أعتاد أن أجده في مرسمه، وقد أصرّ عليّ بأن أتخلى عن «سخافات» المختبر، وأن أنخرط بشكل كامل في الرسم، كُنّا قد أمضينا ساعاتٍ طويلةً في الهذيان بالمعنى الحرفي، بين رائحة زيت التربنتين وزجاجة

الكونياك أو النبيذ الذي لم يكف عن الجري بين أيدينا، وكان التحريض على الانتحار، للحظات مفزعة، حاضراً دائماً بعد الانتهاء من كل زجاجة، اقترح أن يكرر عليّ أن أعود إليه في يوم أحد ممطر مع عودة مارتشي أوكس بوثيس، إلا أنني أجبته: «لا أوسكار، لديّ مشاريع أخرى».

جنونه، واستطراداته كانا مساحة من الحرية في وسط ضيق من العالم العلمي، كما كانت انطلاقته قادرة على تعزيز الحوادث والأفكار الأكثر جنونيّة، ففي زمن ما كان قد انخرط في البحث داخل مجال النحت؛ للحصول على ظاهرة «غير متوازنة»، وبما أنني أنا أتيت من الفيزياء، فقد اخترعت تلك الكلمة التي معناها «تحجّر الزّمن»، السخرية التي حدثت لي بسبب تجاوري المعروف، الذي فعله أوسكار عن فينيوس دي ميلو بالكمان، اقترحتُ عليه إمكانية تغطية التمثال المنحوت بقطعة قماش رقيقة وممطوطة ليحرك بعد ذلك الكمان في أشكال مختلفة، ليحقق أيضاً ما أطلق عليه هو بلهجته اسم «anquietanz».

تمّ نشر النص كاملاً في «مينوتاوري»، وبقي، بالنسبة لي، مثل دليل على زمن من الأزمة. ومع ذلك، فقد مدحه بريتون في احتفاله المعتاد، بدون أن يلاحظ بأنه عبارة عن مزيج من الهراء والسخرية المظللة؛ ذلك الذي أثبت من جهة أخرى سذاجة ذلك الشاعر الكبير، الذي بهذيانه الممزوج بالمادية الجدلية وبالاوتريامونت هدف إلى إخفاء صرامته الفلسفية.

في مناسبة أخرى، حدثني دومينغيث عن صديق له رسم البعد الرابع، وعلى الرغم من محاولته إقناعي، إلا أنني قلت له أن ذلك شيء يستحيل رسمه. لكن كيف يمكن أن أعبّر له عن ذلك؟ إذ إن أوسكار عملياً لا يعرف كيفية مضاعفته، وأنا مدحته وعلى التحديد لما يتمتع به من جهل حول هذه المسألة، وفي يوم ما رافقته إلى مرسم صديقه، فتى قصير القامة وصغير السن، عرض عليّ لوحاته، أعجبني عمله كثيراً إلا أنني قلت لهم مؤكداً إن هذا لا يحتوي على بعد رابع، حتى أنه لا يتضمن شيئاً يشبهه، فإنهم بحاجة إلى معرفة عالية بالرياضيات لفهم المبدأ. خلال سنوات كثيرة لم أر الرسام الشاب صديق دومينغيث، حتى عام ١٩٨٩م، عندما سافرت إلى باريس؛ لأن معرضي كان في مركز فوي بومبيدو، رأيته حينها مرة أخرى بفرحة كبيرة، وتعرفتُ على ذلك الرجل الذي تظهر عليه سمات الكرم والفضول والموهبة، كان اسمه ماتا، يحافظ على علاقة الحب التي عاشها وتعرف عليها عن قُرب، تلك العلاقة التي جمعته بـ جيرمان، الفتاة الرائعة، في الليلة نفسها كُنّا قد تعشينا معاً، وتذكرنا بحب وعاطفة الأشخاص والأحداث التي رافقتنا في زمن تأسيس حياتنا، كما كان في ذلك المعرض أيضاً المفكر العظيم السوريالي موريس نادو، الذي

تكرمت بمشاركته، وتشرفت بحضوره.

في الفترة التي تواصلت فيها مع السريالية، عشت حينها الحنين الذي عاشه الكبار ممن مثلوها. انتهت الحرب العالمية الأولى، والحاجة إلى تدمير أساطير المجتمع البرجوازي كانت الأرض الخصبة لتحطيم روح السرياليين، لكن بعد القنبلة الذرية، ومجالات التركيز وستة ملايين من القتلى من أولئك الرجال الذين لم يعرفوا إعادة تشكيل عالم من الخرائب، فقد أثبت هتلر بشكل مروع بأن الروح التدميرية في حد ذاتها ليست مفيدة على الإطلاق، وعندما انتهت الحرب بعد ذلك، في عام ١٩٤٧م، عدت إلى باريس، لتأتي إليّ ماتيلد من مدينة بوينس آيرس، تلك المدينة التي لم تكن تعاني من أي تأثير مباشر لتلك المصيبة، إلا أن ملامح الحزن كانت قد تركت آثارها على انطباعها، أما جدتها فكانت هي الأخرى حزينة، إلاّ أنّ ما أثار فضولي، وولّد فيّ المزيد من الكآبة أنها كانت قد التقتني في يوم سبت ممطر ورمادي في مقهى خرب، لأتذكر حينها تلك الأكوام من الكرواسان والبريوس الذي يمكن أن تراه معروضاً في أيِّ مقهىً من مقاهي الأحياء السكنية، لكن، وبشكل خاص، فإن الأكثر حزناً كان رؤية بريتون، الذي لم يستسلم لترك الجثة تتحرك بسلام.

ومع ذلك، فإنّ السريالية كانت القيمة العليا التي تسمح لنا للاستعلام أكثر عن حدود العقلانية المنافقة، وفي وسط الكثير من الزيف، عرض علينا أسلوباً جديداً للحياة، ومع وجود الكثير من الرجال ممن كانوا يتبنون ذلك الأسلوب، فقد كنا قادرين على اكتشاف أن نكون، نحن، أنفسنا حقيقيين.

هذا هو سبب خشيتي، وحتى غضبي، أمام المخادعين الذين وسخوها، مثل دالي، إلا أنّ اعترافي على جميع الرجال التراجيديين الذين حموا مَن كان في الحقيقة في ذلك الحراك كان مهماً. بالإضافة إلى المجنون والعنيف دومينغيث، إحدى الشخصيات السريالية القليلة التي رغبت بذلك، أي، بأن تكون السريالية بطريقتها التصورية والمقاومة للوجود، فقد أمضى المرحلة الأخيرة من حياته بين المخدرات والكحول والنساء، حتى وجد في إحدى الليالي منتحراً بعد أن قطّع عروقه، ودمه الملطخ على قطعة القماش الملفوفة حول رقبته.

في مختبر كوري، المكان الذي يطمح أي فيزيائي للعمل فيه، حتى أنهم يجعلونه أهم أهدافهم الحياتية، وجدتُّ نفسي فارغاً من المشاعر، ضَرْبٌ من الكفر، واصلت التقدم بواسطة السكون القوي الذي رفضته روحي.

تم نقل المنحة إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، والذي يُعرف اختصاراً بـ MIT، في مدينة بوسطن، حيث نشرتُ هناك عملاً حول الأشعة الكونية، بينما كنت متعباً ومشتتاً بين ما كان معناه بالنسبة لي الميْل، وما كنت قد ضحيت به لسنوات؛ فالوجود غير مؤكد إلا أنه حضور لا يقهر في الدعوة الجديدة، إنّها لحظة البندول التي لم نجد فيها الهوية التي كنا عليها.

في حلكة الليل عدتُّ إلى بوينس آيرس، كنت قد اتخذتُ القرار في داخلي، ولكن كان ينبغي عليّ الرسوخ والثبات في الصراع مع مَن خدعوني بالمشاركات المهمة وضيّقوا عليّ باطمئنانهم بأن المهمة ذائعة الصيت جعلتني مديناً إلى الفيزياء، أستعيد بعاطفة الدعم العميق الذي قدمته لي ماتيلد في تلك اللحظة، فهي لم تعتبر، على الإطلاق، بأنه ينبغي عليَّ أن أفعل شيئاً آخر أكثر من أن أكرّس نفسي لما يشير إليه حدسي، ولم تعاتبنِ أبداً على حرمان عائلتنا من وسائل الراحة التي كانت تعيشها.

قمت بذلك العبور، كالجسر الممتد بين جبلين ضخمين، في بعض الأحيان كنت أشعر بالغثيان ولا أعرف ما الذي أفعله، وفي أحيان أخرى وبدلاً من ذلك، كنتُ أشعر بفرح عارم يغمرني، لاسيما ذلك الذي يصاحبه ميلاد كل عاطفة كبيرة.

كواجب أخير تجاه الأشخاص الذين منحوني المنحة، فقد درَّسْتُ نظرية الكم والنسبية في جامعة لابلاتا، حيث كان لديّ طلاب مثل بالزيرو، الذي يرأس اليوم مركزاً ذريّاً في مدينة باريلوتشي وماريو بانج.

عندما اتخذت قراراً بهجرة العلوم في بداية الأربعينيات، تلقيتُ انتقاداتٍ قاسيةً من أبرز العلماء في الدولة، ومنهم الدكتور هوسي الذي استمرّ في علاقته معي بشكل طبيعي بعد ذلك، والدكتور غافيولا مدير مرصد قرطبة، الذي كان يُحبّني كثيراً، ويقول: «يترك ساباتو العلوم بسبب التدجيل»، بالإضافة إلى وجيدو بيك، اللاجئ النمساوي، وتلميذ آينشتاين، الذي أَسِفَ في رسالة كتبها لي، قائلاً فيها: «في حالتك، نفقد فيزيائياً قادراً على أن يولّد فينا آمالاً كبيرة».

في عالم النّظريات والعمل حول الأشعة الكونية الذي نشرته أخيراً في Physical Review، كان بالكاد يمكن لمح كل هذه الأعمال في غيمة ضخمة من الغبار.

برفقة ماتيلد وخورخي، عشنا أربع سنوات في مناطق جبلية في قرطبة، في مزرعة مواشٍ، بدون مياه جارية ولا كهرباء الكترونية، كان ذلك في منطقة يطلق عليها اسمٌ بانتانيو. تحت هيبة السماء والنجوم اللامعة، شعرتُ بشيء من الطمأنينة، شعور مشابه لذلك الشيء الذي قال عنه هنري دافيد ثوريو: «ذهبت إلى الغابات؛ لأنني كنت أتمنى أن أعيش متأملاً، أواجه فقط الأعمال المهمة في الحياة، وأرى إذا كان من الممكن أن أتعلم مما عندها، حتى تُعلّمني إياه، فلم يتملكني أي شك، لاسيما أنني على وشك الموت، لأكتشف بأنني لم أكنْ أعيش».

لم يكن لنوافذ البيت زجاج، وفي ذلك الشتاء تحملنا درجة الحرارة التي كانت تصل في بعض الأحيان إلى أربع عشرة درجة تحت الصفر، حتى إن نهر Chorrillos الذي يعبر الحقل قد تجمّد. كنا نستدفئ من حرارة الشمس نفسها، وكأنها تُنيرنا حتى الليل، وعلى الساعة السابعة صباحاً نعود إلى السرير، مُجمَّدين من البرد. في ظهر يوم هادئ بهدوء المناطق الجبلية التي كُنا نسكن فيها، تعرفتُ على طبيب شاب كان ذاهباً في طريقه إلى زيارة أنسبائه في أمريكا اللاتينية، حيث سيعالج المرضى ويبحث عن مبتغاه، إنّه ذلك الشاب، الذي يعدّ اليوم رمزاً لأفضل الأعلام، أتذكره باسمه التاريخي تشي جيفارا.

انهارت الأبراج الوهمية أمامي، بين الأنقاض، مثل نير بين الصخور الجافة، حاولت نفسي الظهور أكثر عمقاً بين الشكوك وعدم الأمان والندم، ومن مشاغبتي السابقة ولد كتابي الأول «واحد والكون»، وهو عبارة عن وثيقة لاستجواب طويل حول ذلك القرار المحزن، كما أنه أيضاً الشوق لوداع الكون النقي.

إنني غاضب بسبب ذلك الاسم الذي أطلقوه عليّ «العنيد»، ففي محاولات متكررة، جاء كل من الدكتور غابيولا مع الدكتور جويدو بيك إلى القرية التي كُنّا نقيم فيها؛ في محاولة منهم لإقناع زوجتي بالابتعاد عن الجنون الذي كانت ترتكبه، في اللحظة التي كانت فيه الدولة بحاجة إلى علماء. على الرغم من أنني حاولتُ أنْ أشرح لهم أزمتي الروحية، وبإقناعهم بأن مهنتي الحقيقية هي الفن، إلا أنهم بالكاد كانوا يفهمون عليّ؛ إذ إنّ العلوم بالنسبة لهؤلاء الرجال هي الإبداع الأعلى والأسمى للإنسان، لقد عزا الدكتور جويدو بيك قراري إلى طيش سكان أمريكا اللاتينية، أما غابيولا فقال إنّه سيسامحني إذا تمكنتُ في يوم ما من أن أكتب عملاً مثل «الجبل السحري»، مسكين غابيولا، أعتقد أنه لم يكن يعلم، على الإطلاق، بأن قراءة رواية «النفق» أثَّرت في توماس مان نفسه، وفق ما دونه في إحدى الأجزاء التي تحاكي يومياته.

في النهاية وافقت على أن أنهي عملي في الديناميكا الحرارية، التي كانت

تقلقني في فترة إعدادي للدكتوراه. الديناميكا الحرارية هي فرع أساسي من الفيزياء التي يعتمد عليها تطور الكون؛ لذلك فإنه سيكون مفهوماً تمّ إخضاعه لكل الأرواح القلقة خشية وقوع أحداث اليوم العظيم. يتذكر البعض قصيدة «يوريكا»، التي كُتبتْ بسبب هذه القضية بواسطة كاتب مولع بالعلوم هو إيدغر آلان بوي. قلتُ إنه كان هناك خطأ في التنظيم الذي تم من خلاله الإعلان عن المبادئ الثلاثة الكبيرة، وبالتالي، سيكون من المستحيل شرح الأساسيات، التي تؤلم الرأس قليلاً والتي أنتجت لي في فترة دراستي الطاقة المتكاملة. عندما عبّرت عن أفكاري الأولى إلى الدكتور لوبارتي والدكتور تيوفيلو إسناردي، فإنهم كانوا قاصدين ردعي، على اعتبار أن الديناميكا عبارة عن مبنى متماسك ومتناغم يستحيل ابتكاره، من ليونارد العظيم إلى القادة الكبار مثل هنري بوينكاري وكاراتيودوري، أما الرفض الثاني فهو الذي سأحصل عليه في مختبر كوري؛ لأن شخصاً متوحشاً من أمريكا اللاتينية لا يمكنه أن يسأل عن أساس الديناميكا نفسها.

وبالتالي، فإن أولئك الدكاترة الأصدقاء أقنعوني بأن أحضر يوماً واحداً في الأسبوع لأضمِّن فرضيتي في المرصد الضخم لـبوسكي أليغري، أعلى سلسلة جبال في قرطبة. في صمت فلكي لليالي، رفقة علماء الفلك، كما هو متكرر في أبراج المراقبة المنفردة في لجة الظلام، أستمع إلى باش وموزارت وبرهامس. وأنا أنظر إلى النجوم، شعرت في المرة الأخيرة بتجاذب لذلك الكون البعيد عن العيوب الماديّة، وبالتالي كان الاعتقاد بذلك الذي عبرت عنه في مقدمة أول مقال لي: «يعتقد الكثيرون أن هذه خيانة للصداقة، عندما يكون ذلك إخلاصاً لحالتي الإنسانية».

عندما عدنا إلى بوينس آيرس بعد تلك الفترة الزمنية في جبال قرطبة، كان وضعنا الاقتصادي ضعيفاً؛ فالحياة لم تكن سهلة، وبالتالي، تحتّم علينا أن نبيع عدداً من اللوحات ذات قيمة محددة، وفي حين كنا ننتظر إيجاد العمل الذي يسمح لنا تحمل مصاعب الحياة، حصلت على شيء من الأموال بعد إعطاء بعض الدروس، وقمت ببعض الترجمات التي كانوا يدفعوا لي حقوقها بشكل بائس، كما حدث مع كتاب بيرتراند راسل «ABC النسبية»، كما أنني قمت بعرض أفكاري للنشر على شركات كبيرة التي رفضت بدورها القيام بذلك لأسباب منهجية. واحدة من تلك الأفكار سُرِقتْ مني، وظهرت منشورة في مجلة «الحياة».

في خضّم تلك الضغوط، تعرفت على عالم الأحياء البولندي نويسكي، الذي بسبب خبرتي السابقة عرض عليّ العمل في اليونسكو، وسرعان ما أكدت له على رغبتي في ذلك من خلال تلغرام خوليان هكسلي، فكان ينبغي عليّ

السفر وحدي إلى باريس مرة أخرى، باتجاه المدينة التي كانت تعيش فيها الوقائع الأساسية، إلا أنني مازلت أجهل وجود أزمة جديدة كانت تنتظرني هناك.

كان في المبنى الذي يوجد فيه مكتب اليونسكو مقراً لجيستابو، وذلك الجو الغريب مع الإجراءات البيروقراطية التي عصفت مرة أخرى بعالم كافكا الذي انتقلت إليه فيما بعد، غرقت في كآبة عميقة، مواجهاً مياه نهر السين، ليخضعني ذلك إلى مغريات الانتحار.

نشأت الرواية العميقة لمواجهة حالات الوجود المحددة، مفترق طرق مؤلم نستشعر من خلاله الوجود الحتمي للموت، في خضم الهزة الوجودية، فإن العمل هو غايتنا، ذلك الذي لم يتحقق أبداً، لاستعادة الوحدة التي تفوق الوصف للحياة، بسبب الاحباط. فبدأتُ، عبر جهاز الحاسوب، بالكتابة بطريقة حميمية عن تاريخ رسام حاول التواصل بيأس.

في عالم من الاضمحلال، وبين بقايا الأيديولوجيات المفلسة، كانت الكتابة بالنسبة لي الوسيلة الأساسية والأكثر إمكانية وقوة لتسمح لي بالتعبير عن الفوضى في أثناء النقاش معي؛ وهكذا يمكنني التحرر ليس فقط من أفكاري، وإنما، وبشكل خاص، من شعوري الأكثر غموضاً وغير المبرر.

الوطن الحقيقي للإنسان ليس الكون المحض الذي خضع له أفلاطون؛ فوطنه الحقيقي، الذي يعود بعد ذلك من رحلاته المثالية هو هذه المنطقة الوسيطة والأرضية للروح، هذه الأرض الممزقة التي نعيش فيها، حيث نحب ونعاني. وفي الزمن الكلي للأزمة، فإن الفن وحده يمكنه تفسير كرب ويأس الإنسان، فهو مختلف بالفعل عن كل نشاطات الفكر الأخرى، فهو الوحيد الذي يشتمل المجموع الكلي لروحه، وبخاصة في الخيالات العظيمة التي تحقق التقدم في المجال المقدس من القصيدة. الإبداع هو ذلك الجزء من الشعور، الذي اكتسبناه بالضغط على الرغم من ضخامة الفوضى. «لا يوجد أحد على الإطلاق كتب ورسم ونحت وصمم وبنى ونهض إلا ويخرج من جحيمه». إنَّ الحقيقة المطلقة عزيزي أرتاود، فيها الإعجاب والمعاناة.

بعد سنوات دعاني مجموعة من الزملاء في الجامعة إلى الكتابة في مجلة أدبية كان ينشر فيها عدة كُتّاب يخطون نهج أفلاطون في كتاباتهم. كان الشكل التصويري لمجلة «ثيسيوس» جذاباً جداً، لكن هذا النوع من المجلات لا يتجاوز عادة ثلاثة أو أربعة أعداد فقط، وهذا ما حدث فعلاً، إلا أنها، رغم ذلك، كانت مجلة أساسية بالنسبة لي. وكذلك هو الحال عندما نعتقد أننا ضائعون وبلا هدف، كما لو أن حياتنا تأخذ حركات في شكل غير محدد، إلا أن العمق إرادة

مجهولة بالنسبة لنا، تقودنا باتجاه الأماكن التي من الممكن أن نتلاقى فيها مع أشخاص أو أشياء أساسية، جوهرية، بالنسبة لوجودنا.

كان المقال الذي كتبته للمجلة مهتماً بيبدرو هينريكث أورينا، الذي لم أره منذ فترة. عندما التقينا مرة أخرى، شعرت بالإعجاب بذلك الإنسان الاستثنائي الذي استفاق في داخلي، الذي كان يناضل دائماً في المقدمة من أجل العدالة، بالإضافة إلى بحثه عن الكمال الفكري، شخص ما أمام مَن أشعر به يؤكد رؤيته للحياة. فدوام شكري واعتزازي بذلك الاستحقاق لأنني تعرفت عليه.

في تلك المحادثة، سألني دون بيدرو إذا كنت أرغب في كتابة مقال لمجلة «سور»[9] ، المجلة الكبيرة التي كان مديرها فيكتوريا أوكامبو. بغضب ممزوج بعاطفة كبيرة، سلمته عملي في المقهى الذي كنا نجلس فيه. ما زلت ألتفت إليه وهو يقترح عليّ أن أحذف الفقرة الأولى، سألني متهكماً: «أبدأ هنا؟» كأنه لا يريد أن يجرحني، لإخفاء ملاحظته. لن أنسى حساسيته المفرطة، تلك الملاحظات المدونة على الهامش بحروف غير مقروءة، مع ذلك الذي يصحح لنا بكل ذلك الرغد الذي كنا نتمتع به على اعتبار أننا طلبته.

[9] مجلة Sur، وتعني بالعربية «الجنوب»، وهي من المجالات الأولى التي بدأ فيها أشهر كتاب أمريكا اللاتينية بنشر إبداعاتهم الأدبية. ومن أهم هؤلاء بورخيس وساباتو. (المترجم)

بعد ذلك بأيام اتصل بي ليقول لي إن مجلة «سور» ستنشر المقال وأن خوسيه بيانكو يرغب في التعرف عليّ، أتذكر الشعور الودي عندما استقبلني بيانكو؛ فقد دعاني إلى النشر بشكل دوري معهم، وبعد ذلك أوكل إليّ التقويم القديم الذي توقف عن النشر منذ سنوات.

كنت دائماً أقدّر قيمة بيانكو لاهتمامه الديمقراطي ولأنه على عكس ما يعتقده الكثيرون، فبيانكو لم يكن كاتباً يكتب من برج عاجي، بل كان مدافعاً غيوراً عن الحرية وعن حقوق الإنسان، أجريت معه محادثات طويلة حول النازية في فترة الحرب. كانت جودة المجلة نتاج صراعه مع الصحافة ومراجعة كل المخطوطات، التي كان يرى في أن معظمها بحاجة إلى تصحيح؛ ولذلك كان يقول، وهي عادته الدائمة: «من المستحيل نشرها»، ومن عاداته أيضاً أثناء عمله، أنه كان يضع رأسه بين الأوراق، ويقوم بعمله كمحقق.

اتهمت مجلة «سور» بأنها مجلة نخبوية ورجعية، تلك الاتهامات التي كنت أعتبرها دائماً عبارة عن رأي مزيف وغوغائي؛ فالتأهل المتشابه يهدف إلى تجاهل ذلك الذي كتبه هناك الشيوعيون مثل سارتر، والفوضويون مثل كامو وهيربرت ريد، والكاثوليك التقدميون مثل غرهام كريين، والكاثوليك الاجتماعيون مثل إيمانويل مونير، وقد ساهم في تأسيس اللجنة معه شيوعية مقاتلة اسمها ماريا روسا أولبير. نُشر في مجلة «سور» الأعمال المهمة التي

تتحدث عن النازية، وعن العدالة الاجتماعية، والثورة الروسية، واللاسلطوية، وحقوق الإنسان. وبدون شك، فقد ارتكبت بعض الأخطاء، لكن أريد أن أسأل هل هناك مجلة في العالم لا تحدث فيها أمور مشابهة كهذه؟

ينبغي عليّ أن أعترف بأن كل ما فعلته فيكتوريا كان عبارة عن نشر للثقافة العالمية، فعلاقتي معها كانت مثل علاقة زوجين يجمعها الحب والصراع العنيف، لكن لا يمكن لواحد أن يستغني عن الآخر. أما بيانكو فكان المحرك الأساسي لاستمرار مجلة «سور»، وكانت فيكتوريا هي مَن أنشأ تلك المجلة، التي لم تصل إلى هذه الأهمية اللافتة بدون النهم الثقافي والفني والمعرفي العالمي الذي كانت تتمتع به، فبسبب جهودها أعادت بعض الكُتّاب المشهورين إلى بلادهم، مثل: أورتيغا إي غاسيت وسترافينسكي وطاغور وغيرهم الكثير.

كانت صفحات مجلة «سور» بمثابة المدرب لكل أبناء جيلي؛ فمن خلالها تعرفوا على كل الدول الناطقة بالإسبانية، وعلى مؤلفين من أمثال فرجينيا وولف، ولاورنسي، وألدوس ويكسلي، ولورنس العرب، وهنري ميشو، وويليم فوكنر، بالإضافة إلى أنها تعرف القارئ على أفضل أنواع الفكر العالمي من اليابان إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتجدر الإشارة إلى أنّ اكتشاف مثل هذه الشخصيات البارزة لم يكن من خلال فيكتوريا فحسب، وإنما من خلال لجنة من المتعاونين معها أيضاً.

كانت اللقاءات تعقد في بيت فيكتوريا، وهذا يعني، بالنسبة لي، تكويناً معرفياً ثانياً، وجامعة جديدة كنت فيها طالباً سيّئاً. في ذلك المجال كان لا بُدّ من ذكر أعمال بيانكو المشهورة وكلاسيكيات بورخيس، كما كان الحديث عن باتريثيو وإيستيلا كانتو، ورودولفو ويلكوك في بعض الأحيان، بالإضافة إلى ذكر وماستروندي. في خضم النقاشات كنا ندرج أسماء مثل: ستيفنسون وهنري جيمس كولريدج وكيبيدو وثربانتس، تلك الأسماء التي كانت تُشكل محور «التكرار» الدائم في تلك النقاشات، حيث ذكرها يقرّب لنا الزمن، بالإضافة إلى نيتشه والعودة الأبدية والأرقام المنقولة وتوسع الكون. عندما جئت من العالم المظلم للسرياليين، في خضم تلك البيئة النقيّة شعرت بنوع من البربرية، حتى أنني دخلتُ مُتخفيّاً إلى عالم الكتّاب الروس، وتحت نظرات السخرية لبورخيس، والمناقشات التي استمرت حتى الفجر.

ثم نشأت ارتباطاتي ببورخيس، لاسيما في المحادثات التي لا تنتهي حول أفلاطون وهيرقليتو دي إيفيسو، وكانت محادثاتنا، دائماً، تتم بذريعة تقلبات سكان بوينس آيرس. بأسف، في عام ١٩٥٦م انفصلنا بسبب التناقضات السياسية -كم هو محزن ذلك الذي حدث!- وبالتالي، وفق أرسطو، تختلف الأشياء في ما تبدو عليه، وأحيانا يصل بمجموعة من البشر الانفصال عن

الأشياء نفسها التي يحبونها.

أنا لم أكن معادياً للبيرونية لدفاعي عن الامتيازات، بل لأنني لا أستطيع أن أتحمل الاستبداد والطرد الذي تعرّض له المدرسون والمدرسات لعدم خضوعهم لسياسات الحكومة. في تلك الحركة التي كان فيها مبرر للشوق للعدالة والكرامة أمام مجتمع بارد (فاتر) وأناني، الذي يستغل الفقراء بطريقة مهينة، يستعبدونهم في ذلك النوع من معسكرات الاعتقال التي كانت مخصصة للمزارعين والحطّابين، بينما الكثير من المثقفين، عوضاً عن الرد على مأساة هؤلاء الرجال، فقد استسلموا لمصالحهم الخاصة والتافهة.

كل هؤلاء المشردين، كما أطلق عليهم إبيتا، الذي كان صراعه حقيقياً وبطولياً من أجلهم، تمّ تجنيدهم من قِبَل البيروني كما عرفت بعد ذلك. بعد نصف قرن، تلاشت صورة الرئيس إبيتا، كما تلاشت معه أيضاً صورة فيرجين، ليصبحوا من أفقر الأسر في البلاد. رمز التواضع والشكر لتلك السنوات المنفردة في كثرة الأموال والاحترام لمن كانوا أكثر تواضعاً. مع الأخطاء التي كلنا نعرفها كان هناك أناس صادقة جداً مثل سكالابريني وجوريتشي، ممن كانوا أصدقاء.

على الرغم من أنني فقدت أستاذيتي خلال وجود الحكومة البيرونية، عندما تم تعييني في عام ١٩٥٥م مديراً لــ «الموندو أرخنتينو» (العالم الأرجنتيني)، فقد عارضت كل إجراء قمعي تجاه المحتجين. لاحظت على الفور أن رؤسائي شعروا بالضيق مني، لاسيما وأنني قبلت في المجلة تعاون أشخاص من مختلف القطاعات، حتى أنني في النهاية أجبرت على تقديم استقالتي عندما شجبت ونددت ممارسات التعذيب ضد العمال البيرونيين في مختلف مراكز الدولة وفي أقبية الكونغرس الوطني، وبعد ذلك، وفي برنامج إذاعي، عدت إلى الحديث عن تلك الأحداث التي تسببت في فضيحة وشتت جزءاً مهماً من المثقفين.

في تلك المناسبة، بالإضافة إلى التعذيب، أشرت إلى كبار الكتّاب ممن أكسبهم تشددهم العداء والحقد والصمت، وتحدثت عن شخص بارز ومعروف هو ليوبولدو ماريشال[(10)] .

(10) هو شاعر وروائي وكاتب دراما ومقالات متنوعة، ولد عام 1900م، يعده البعض من رواد الأدب الأرجنتيني الحديث، وقد اشتهر كثيرا بعد نشره لرواياته «آدم بوينس آيرس»، التي اعتبرها بعض النقاد بأنها واحدة من أهم الروايات الأرجنتينية التي كتبت في القرن العشرين، بالإضافة إلى نشره لعدد من المجموعات الشعرية والدرامية والمقالات الثقافية والسياسية. (المترجم)

في تلك الفترة من الاستبداد السياسي، رُفض الاعتراف به باعتباره واحداً من كبار الكتاب الأرجنتينيين، ممن أجبروا على تحمّل قسوة المنفى في

وطنهم نفسه، ماريشال الذي خصّ بالحب العظيم، مسنداً نفسه على زميل له يدعمه، في لحظة من لحظات الشعور بالمرارة الشديدة، ذلك الرجل المتواضع الذي سمع منه تمتمة: «متى سيتوقف أبناء بلدي من التبوّل عليّ؟».

كان ماريشال وعائلته يستمعون إلى ما يبثّه الراديو، اتصلوا على المنزل ليشكروني على ما قلته، ومنذ ذلك الحين، بقيت صداقتنا التي أقدر قيمتها دائماً، والتي تشهد عليها هذه الرسالة الجميلة: «أعزائي ماتيلد وإرنستو: إيلبيا وأنا استمعنا لأصواتكم الحنونة التي عبرتم عنها والتي هي، حرفياً، عبارة عن «بركات». في نهاية هذا العام سندعو لأنفسنا ولكم ولأصدقائنا: بالسلام والمحبة في هذه الدنيا، وباليسر والسعادة في الإبداع الأدبي وفي غيرها من الأعمال الجيدة، فإن الله سيحررنا من أبناء العاهرة بالمعنى الحرفي والمجازي، الذين يهدفون إلى بث الحزن فينا، وندعو الله أن يحفظنا من كل هراء ودجل؛ إذ كنا نقاتل، فإنّ الله سيكون معنا في خندق القتال وفي المعركة الأكثر عدلاً. عزيزاي ماتيلد وإرنستو، قولوا معنا «آمين»، لنحيا!. تقبلوا عناقنا الأبدي لكما. أخويكما إيلبيا وماريشال.»

كان ماريشال رجلاً يعذبه مصير وطنه، كما انعكس ذلك في أعماله وفي تأملاته الحزينة التي نقد فيها أولئك الذي يوسخون أو يسحبون قذارتهم من الأرض، ويقومون بوضعها بعد ذلك داخل الجيوب المهللة. عندما يقوم شخص ما من أصحاب الروح النبيلة بمعاتبة الوطن، فإنه يفعل ذلك لأنه يعلم عظمته الممكنة. لقد فعلوا ذلك بقلب ينزف ويمزق، من هولدرين ونيتشه ودوستويفسكي وتولستوي، والرائع بوشكين الذي قرأت له بعد حديثه وأوصافه الموجهة لصديقه لوكول، الذي أعلن بقوة وبصوت متعب من المرارة: «إلهي، كم هي روسيا حزينة!».

وبالطريقة نفسها، وفي بيت شعر غزير بمعانيه، يقول ماريشال: «الوطن هو الألم الذي مازال يجهل اسمه». مازلت أسمعه، بصوت ناعم، بالكاد يكون همهمة خطيرة.

كانت رواية «النّفق» الرواية الوحيدة التي أردت أن أنشرها، ولتحقيق ذلك كان ينبغي عليّ أن أعاني من الإهانات المريرة. فبالنظر إلى معرفتي العلمية، فلا شيء بدى لي ممكناً بأن أكون قادراً على الانخراط، وبشكل جدي، في الأدب. حتى إن كاتباً مشهوراً علق قائلاً: «بماذا سيأتي الفيزيائي في الرواية!»، وكيف أدافع عن نفسي عندما كانت أفضل معارفي العلمية السابقة مخصصة للمستقبل؟

رفضتْ الكثير من دور النشر في البلد طباعة رواية «النفق»، وحتى من

خلال فيكتوريا أوكامبو نفسها، التي اعتذرت مني قائلة: «نصفنا مصهور، ولا يوجد لدينا نحاس لمقاسمته». كم كانت عبارة أوسكار ويلد صحيحة: «هناك أناس يهتمون بالأموال أكثر من الفقراء، إنهم الأغنياء». ما زلت أتذكر الوقت الذي فتح فيه باب الكواراندي -المقهى نفسه الذي بعد ذلك ستتكرر فيه لقاءاتي مع غومبرويتش- والتفت إلى ماتيلد ورأيتها تبكي، مترهلة، تضع بين يديها النسخ الأصلية من روايتي، التي لم أجرؤ على سحبها، فقد كانت النسخة المخجلة.

في النهاية، استعرت من صديق كريم اسمه ألفيردو ويس، الذي فعل المستحيل لنشرها في مجلة «سور»، ليتم تنفيذ ذلك على الفور. في السنة التي تليها، تلقيت خبر صدورها بطبعة فرنسية، وذلك بفضل مبادرة كامو السخيّة.

باريس، ١٣ من تموز لعام ١٩٤٩م

أنا أقدّر رسالتك وروايتك.

جعلني Caillois أقرأ روايتك وأعجبني فيها كثيراً الجفاف والشدة. نصحت Gallimard بأن يطبعها وآمل أن تجد رواية «النفق» في فرنسا النجاح الذي تستحق. كنت قد تمنيت أن أخبرك بذلك وجهاً لوجه، إلا أن منع بعض أعمالي في بوينس آيرس حال من عقد مؤتمرات كان من المتوقع القيام بها هناك، ومع ذلك، سأذهب إلى البرازيل، بهدف الاقتراب من بوينس آيرس بصفتي الشخصية ويسعدني كثيراً لقاؤك. من هنا إلى ذلك الحين، كل المحبة الأخوية.

ألبرتو كامو

كم أنا مَدين لهذا الكاتب العظيم، الذي سأشارك معه، بعد ذلك، الاهتمامات الميتافيزيقية والأخلاقية. في كثير من المناسبات تحدث عن عدميته، وفي كل الحالات كانت تلك مرحلة العدم التي كَفَرَ من خلالها بمعتقدات الإيمان بالله؛ عاش مثالية بائسة، وكان رجلاً مغموراً بالحب والغرام.

عندما تحدثت عن هذه الحكاية في إحدى الصحف، دعتني فيكتوريا بغضب شديد لتعاتبني بازدراء، لاسيما وأن الكتاب كان قد تلقاه الكثير من الكُتّاب الفرنسيين بحماس، لكن «هكذا هي الحياة» كما كانتْ تقول. تحدثت عن قرب بأهميته التي يمكن أن يساهم بها في ثقافتنا، إلا أن التقدير المتبادل والإخلاص الذي كان بيننا لم يكن عقبة في ألا أكون فرنسياً.

لم أعتبر نفسي مطلقاً كاتباً محترفاً، مثل أولئك الذين ينشرون رواية كل عام، بل على العكس، ففي بعض الأحيان، كنت أقوم بحرق ما كنتُ كتبته خلال

الصباح، وهكذا فإن الكثير من القصص والمقالات والأعمال المسرحية رأيتها مستهلكة في النيران، كما خصص الكثير منها لـ «أبطال وقبور»؛ فالكثير منها كان دائماً مثيراً لشكوكي. بسبب ميلي إلى رؤية اللهب، كنت في بعض الأحيان أشعر بالندم؛ فالأعمال التي أتذكرها اليوم بشوق وحنين، هي: «رجل الطيور»، والرواية التي كتبتها خلال بدايتي السريالية، والتي كان عنوانها «المصدر البديل»، العنوان الذي أخذته من بيت شعر لــ أنطونيو ماتشادو، تلك الرواية التي بقي منها القليل من الفصول وبعض من الأفكار. فمن يعرفون تحفظاتي وتناقضاتي، يدركون صعوبة تحمل وجودي في أي مؤسسة؛ فقد عانى من كل ذلك، ومن جميع أنحاء العالم، أولئك الذين طلبوا مني تصريحاً للعمل في رواياتي؛ بهدف عمل أفلام أو أدوار مسرحية، من كبار المخرجين إلى الشركات المستقلة، كما أراد بياثويا أن يقوم بعمل أوبرا، متكيفة مع روايتي «أبطال وقبور»، المشروع الذي، بسبب تأملاتي، خُصّ فقط بمقدمة جميلة.

لسوء الحظ، في هذه الأوقات فُقدت قيمة الكلمة، وأصبح الفن منحطّاً، واختزلت الكتابة إلى عمل مشابه لطباعة العملة الورقية، كما قلت في كتابي «الكاتب وأشباحه»: «يبقى عدد قليل: أولئك الذين يشعرون بالحاجة الغامضة إلا أنها مستحوذة لمشاهدة مآسيهم، وبؤسهم وعزلتهم، فهم الشهود، شهداء عصر ما». يقصدون مهمة عليا، ولا ينتمون إلى أي جوقة أدبية أو ندوة للأدباء أو الفنانين، ولذلك، ليسوا نهاية طمأنة الأفراد المنغلقين على أنفسهم في مجلس كنيسة ما، بل هدم كل المنافع والمصالح، ليعود لنا الإحساس بحالتنا الإنسانية المأساوية. في هذه الحرفة، هناك الكثير ممن يدفعون إلى الجنون، إلى المخدرات، أو إلى أنواع أخرى من أنواع الانتحار. أتذكر عندما قال لي الدكتور كاركامو أنه ينبغي عليّ حالاً البدء بجلسات علاجية نفسية؛ لأنني كنت فعلياً على وشك أن أكون مجنوناً. بكل تأكيد أثار فيّ كلامه قلقا مفزعاً؛ لأنه كان رجلاً طيّباً، إلا أنني رددت عليه أن ما سينقذني هو الفن دون غيره.

لن نعرف مطلقاً اليأس الذي كان يعيشه بيتهوفن عندما ألّف سيمفونيته الأخيرة والرائعة، أو لحظات العزلة التي أنشأ فيها الملحنون العظماء أعمالهم، لذلك، إذا كان الفشل محزناً، فإن الفشل في الفن مأساة دائماً.

من المؤثر أنني كنت في عدة مناسبات بجانب قبر فان خوخ، الرجل سيئ الحظ، الذي لم يستطع على الإطلاق أن يبيع لوحة من لوحاته، ومَن تتنافس أعماله الآن لبيعها بملايين الدولارات، وذلك أثناء عرضها في الأسواق العالمية. مسكين بيثينت فان خوخ، الذي يسكنه الله والشيطان، متواضع ولطيف، ذهب لإلقاء بعض الخطب الدينية من الإنجيل أمام عمال المناجم، الذين هاجموا بشجاعة غوغان؛ ليجمع العاهرات الفقيرات من الشوارع، وانتهى به الأمر

بجلب واحدة منهن لتعيش معه، ربما لأنه فهمها، لاسيما وأن كلاهما كان يعاني الفقد نفسه. كما أشار أرتود، الشغوف الآخر بمَن كنت أعجب به دائماً ـ مات فان خوخ منتحراً بسبب المجتمع الذي لم يتمكن من الاستمرار في تحمّل خياناته المفزعة. كيف أشك بأن أرتود كان يتحدث أيضاً عن نفسه؛ ففي رسالة بعثها إلى طبيبه، بعد أن عولج من صدمة مفزعة، عبّر عما يدور في خلده قائلاً: «تعاملت كمختل عقلي وبسوء معاملة بإيماء إلى ما كنت عليه، بموقف، وبطريقة للحديث والتفكير، المفردتان اللتان كانتا في حياتي مثل حياة رجل المسرح، والشاعر والكاتب الذي كنت في النهاية أنا». وفي النهاية مات كالكلب؛ حيث وجده راعي الحديقة في صباح أحد الأيام، متكئاً على سريره وفي يديه حذاء. لا تعرف أبداً إلى أين اتجه في ذلك اليوم من عزلته الأخيرة.

لذلك، فإنّ جنس الفنانين ممن أعجبت بهم، هو ذلك الذي ينتمي إليه هؤلاء الرجال، ممن اتحدوا على موقفهم، وقاتلوا القلق الروحي الخطير، وفي البحث اليائس عن معنى، أنشأوا أعمالاً مجردة وممزقة من تلك التي تخيلتها مثل تعبير منفرد من أجل الحقيقة.

لماذا قادتني الآلهة، في عيد الغُطاس، نحو المصير المجهول؟، لماذا على الثلاثين من العمر، عندما رسمت لي العلوم مستقبلاً هادئاً ومحترماً، هل تخليت عن كل شيء مقابل فقر مظلم ومنعزل؟ لا أعرف، أقولها مراراً وتكراراً، مثل منبوذ في وسط الأعاصير الغامضة، ابتعدت باتجاه لم يسلكه أحد من قبل دون أن أرى شيئاً ولا حتى جزيرة بعيدة، لأنظر إلى الخلف، وأكرر من جديد طلب بودلير: أيا إلهي! امنحني القوة والشجاعة لأتفكر بدون اشمئزاز في جسدي وقلبي!

على الرغم من فهمي المفزع له، إلا أن الحياة عبارة عن مسودة، لا تمنحنا شيئاً لتصحيح صفحاتها.

وعندما أقرأ الرسالة التي أرسلتها لي فتاة تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، تلك التي عبّرت لي عن إعجابها بشخصيتي، وعلى الرغم من أنها تعيش على بُعد بضعة مبانٍ، إلا أنها لم تتجرأ مطلقاً على الاقتراب مني، أشعرُ بالخجل. ما أجملها من رسالة!، كانت أكثر نُبلاً، وفي أحيان أخرى كانت أكثر حزناً! تقول إن الذي ساعدها على العيش هو أنها ترسم، وأنها ستكون سعيدة جداً إذا عرضتْ عليّ ذات يوم بعضاً مما تفعل، وعندما مرّت ذات يوم بجانب بيتي والتفتت إلى الحديقة المهجورة، فإنّها كانت تحلم بلقائي. ولهذا، فأنا أشعر بالخجل حقاً؛ لأنها تجعلني مثلها الأعلى واستحقاقي أقل منها بكثير، من تلك الفتاة النقية والأصيلة. بدلاً من ذلك، وكوني أعاني من عيوب خطيرة مع أشخاص أشرار مثل فيرناندو فيدال ألموس، إلا أنني كنت أرتجف وأنا أكتب تلك الشذرات،

حيث ظهرت بعض الشخصيات اللامتناهية مثل: هورتينسيا باث، وسائق الشاحنة بوسيش أو المجنون باركون، مبعوث الحي. أولئك الأشخاص المتواضعون، أولئك الأميون المليؤون بالطيبة، والشباب بآمالهم الساذجة، هم الذين سينقذونني. من ناحية أخرى، فإنّ الفرضيات المتحيّزة، والأفكار ونظريات المقالات، لا يخدمن من أجل تبرير الوجود.

لذلك، عندما تقترب النهاية، لمراجعة أجزاء من رحلة طويلة، أستطيع أن أوكد بأنني أنتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين شكلوا عوائق مع الحياة، لذلك عندما يتحدث بعض المفسرين عن «فلسفتي»، لا أستطيع إلا أن أحيّر نفسي؛ لأن لديّ العلاقة نفسها مع الفيلسوف الذي يُرسِّخ فعله وواقعيته بين مقاتل يخوض حرب عصابات وبين جنرال محترف في مهنته. أو ربما بشكل أفضل بين جغرافيّ ومغامر مكتشف يستلهم حدسه للبحث عن كنز في مكان عميق من غابة الملايو، الشخص الذي لديه الأخبار الغامضة، ولا يمتلك حتى تأميناً على وجوده. في الرحلة الشاقة، رأيت أماكن رائعة، فكان ينبغي عليّ أيضاً أن أواجه، وأسقط مرة أو مرتين. شعرت باليأس لعدم قدرتي على العثور على الكنز، لتفتر عزيمتي ويضعف إيماني بقدرتي على إيجاده فترة العوز الشديد، ففقدت الإيمان مراراً.

أقول الحقيقة عندما أوكد أنني لم أكن على دراية بالمناطق الأخرى، وأن جهلي بالوقائع الأخرى لا يُعد ولا يُحصى، لكن بدلاً من ذلك يمكنني أن أثبت صحة بحثي من خلال الطريق الذي سلكته.

ربما هي النهاية

ساعة الحزن، النظرة المُكفهّرة للشمس، هي روح غريبة في الأرض

جورج تراكل

أشاهد الأخبار وأوكد على أنّ من غير المقبول التخلي، بشكل هادئٍ، عن فكرة أن العالم سيتغلب على الأزمة التي يمر بها.

كان للتطوِّر البسيط للتقنية والهيمنة الاقتصادية عواقب وخيمة على الإنسان، وكما في عصور أخرى من التاريخ، فإنّ السلطة التي بدت، في البداية، أفضل حليف للإنسان، تُحضِّر من جديد للقيام بالجرفة الأخيرة للأرض حول قبر امبراطوريتها الضخمة.

«من دون شك، فإنَّ كل جيل يعتقد بأنه متفرّد لإصلاح العالم. ومع ذلك، فإنني على يقين بأنهم لن يفعلوا ذلك، إلا أن مهمتهم المتمثلة في منع العالم من الانهيار ربما تكون أكبر، يرثون التاريخ الفاسد الذي تختلط فيه الثورات الفاشلة والتقنيات المجنونة المخبولة، والآلهة الميتة، والأيديولوجيات المنهكة، التي تسيطر عليها أي قوى متواضعة، والتي يمكنها اليوم أن تُحطِّم كل شيء، دون معرفة وسائل الإقناع، بالإضافة إلى الذكاء الذي يُقلّل من قدره حتى يوضع لخدمة الكراهية والظلم». كيف يشك في صحة كلمات كامو هذه في القرن العشرين؟، ومع ذلك يوجد مَن يهدفون إلى متابعة الحديث القريب عن تقدم التاريخ في عمل انتحاري يقصد به النظر لتفادي الإرث العقلاني الذي يعاني منه الكثيرون.

التاريخ لا يتقدم. فقد قال عنه الكاتب الكبير جيامباتيستا فيكو بأنه: «مساقات ودعوات». التاريخ يحكم بحركة من التقدم والتقهقر، الفكرة التي عاد إليها شوبنهاور ومن بعده نيتشه. التقدم هو الذي يصلح للتفكير النقيّ فقط. من الواضح أن رياضيات أينشتاين متفوقة على نظريات أرخميدس. والبقية، ما يهم فيها هو من الناحية العملية فقط، محدثة القشور الذهنية للأسفل، ومركزها هو القلب، ذلك الباطن الغامض، مثل مضخة الدم الميكانيكية تقريباً، فلا شيء بجانب الحصر والمتاهة المعقدة للدماغ، لذلك فإنه شيء يؤلمنا عندما نكون أمام أزمة كبيرة؛ لأننا لم نفلح في إدراك ذلك، وبالتالي، فإنّ القلب يبدو أنه الأكثر اتهاماً للألغاز، وللأحزان، وللعواطف، وللحسد، وللاستياء، وللحب، وللعزلة، حتى أنه الوجود نفسه للإله أو للمهيمن. الإنسان لا يتقدم؛ لأن روحه هي نفسها، كما يقول Eclesiastés: «لا يوجد شيء جديد تحت الشمس»، ليشير بالتحديد إلى قلب الإنسان، وذلك في كل الأوقات

التي تسكنها السمات نفسها، مدفوعة إلى النبلاء الأبطال، لكنها مغوية أيضاً بالشر. لقد كانت التقنية والسبب من الوسائل التي طلبها الوضعيون كقطع من الخشب التي سيضيئون بها طريقنا تجاه التقدم. أحضّر الضوء الذي جلبوه لنا! ففي نهاية القرن سيفاجئنا بالظلمة، وإشراقة الأمل ما زالت باقية فينا، لتبدو الإشارة التي نحيطها بظلنا. إنّ الإنسان منبوذ في الظلام، حيث يتقدم نحو الألفية القادمة مع عدم اليقين بمَن يتوخى الهاوية.

في عام ١٩٥١م، نشرتُ كتاب «رجال وعتاد»[(11)] ، ولسوء الحظ، فقد تحقق ذلك الحدس بسبب ذلك الكم الهائل من النقد الذي تلقيته من عدد من التقدميين المشهورين، الذين خلال عشر سنوات، تركوا لي الأمل للعودة إلى النشر.

[(11)] هو عبارة عن مجموعة من المقالات النقدية، التي يعبر فيها عن الوجودية والقومية. (المترجم)

مضى أكثر من أربعين سنة منذ ظهور ذلك التوازن الروحي لوجودي، كتبت في خضم النوبات العظيمة التي يمر بها العالم. الآن، فإنّ الجزء الكبير من الذي كنت قد اكتشفته هو عبارة عن حقيقة تقشعّر لها الأبدان. الكثير من أولئك الذين هاجموني وسخروا مني واتهموني بالظلامية والتخلف الحضاري، بدأوا الآن يفهمون العالم الذي نشأوا فيه.

اكتشفت هناك عدم ثقتي وقلقي بالعالم التقني والعلمي، وبذلك المفهوم الذي يجعلك إنساناً وبالوجود الذي بدأ بالمبالغة عندما قفزت نصف آلهة عصر النهضة بنشوة تجاه الفتح الكوني، وعندما كان اليأس الميتافيزيقي والديني قد استبدل بالكفاءة والدقة والمعرفة التقنية. انتهت تلك العملية التي لا يمكن كبحها بمفارقة رهيبة: التجرد من الإنسانية. في ذلك الكتاب، منذ أكثر من نصف قرن، كنت قد كتبت: « هذه المفارقة، المتضمنة للتأثيرات الأخيرة والأكثر مأساوية والتي عانينا منها في الزّمن الذي نعيشه، كانت نتيجة قوتين ديناميكيتين وغير أخلاقية هما: المال والعقل؛ فمعهما، يستطيع الإنسان أن يتغلب على القوة العلمانية لكن -وهناك أساس المفارقة- يتم ذلك التغلب من خلال التجريد: من سكب الذهب حتى صفائه، ومن الرافعة إلى اللوغاريتم، فتاريخ هيمنة الإنسان المتزايدة على الكون يجعله أيضا تاريخ المتواليات المجردة. الرأسمالية الحديثة والعلم الإيجابي وجهان لحقيقة واحدة مجردة من السمات المادية، لملخص وهمي لما يشكل أيضاً جزء الإنسان، ولكن ليس الإنسان المادي أو المفرد، وإنما الإنسان - الطين، ذلك الكائن الغريب بمظهره الذي ما زال إنسانياً، بالعيون والدموع، والصوت والعواطف، لكن في الحقيقة هو تجانس لماكينة ضخمة مجهولة. هذا هو المصير المتناقض لنصف آلهة عصر النهضة تلك، التي ادعت فرديتها، والتي نهضت مفتخرة ضد الإله،

تنادي برغبتها بالهيمنة وبتحول الأشياء. التجاهل الذي سيصل أيضاً إلى تحول في شيء».

لم تكن تلك الأفكار المرتجلة إلا تأييداً من كبار المفكرين الوجوديين، ببواطنهم ورؤاهم العميقة، مثل: باسكال، بوبر، بردياِيف، نيتشه، أونامونو، ياسبرز، شوبنهاور، إيمرسون، وثرو. وكان دوستويفسكي مهماً جداً في تكويني، والمعروف بأهميته التأسيسية، بالإضافة إلى الفيلسوف الدنماركي كيركيغارد، الذي كان قد علّق قنابله على أسس الكاتدرائية الهيغلية[(12)]؛ فصحافة بلاده واللوثريون صوّروه بوحشية، ولأن الحق كان معه، فقد كان كبش فداء في سبيل المسيح. وفيما يتعلق بما يمكن أن أطلق عليه الأسس الاجتماعية والتاريخية، فقد كانت دراسات مونفورد ودانيس دي روغومونت وبيرني وبون مارتين وغيرهم الكثير ممن كانوا مثل أنبياء في الصحراء يُعبِّرون عن مآسيهم القادمة ذات القيمة الأكبر. عندما بدأت محركات الثورة الصناعية بالتحرك، كان الإنسان قد رُحّل بمأسوية، لكن ازدادت مقاومة الأرواح البارعة والبديهية أيضاً التي جسدت بدورها الشجاعة واضطرابات الثورة الرومانسية. حذّر كبار الشعراء والمفكرين في ذلك الحراك من العواقب التي قد تسبب تحطيم العقائد الدينية للكون وللوجود الإنساني. كثيرون منهم تعرضوا للقذف، أو دفعوا إلى شرب الكحول أو طردوا إلى منفى حزين. مثل ما حدث لشيلي العظيم الذي تنبأ في بعض أبياته الشعرية قائلاً: «الشعب يموت من الجوع في حقول غير محروثة».

(12) إشارة إلى منهجيته الفلسفية التي كانت مركزة على أهمية الفردية والذاتية، مخالفا بذلك منهجية هيغل. (المترجم)

لم تكن تلك التحذيرات مسموعة فحسب، وإنما علاوة على ذلك كانت مثار استهزاء غطرسة وجبروت العقلانية: الحروب العالمية، والديكتاتوريات المرعبة لليسار واليمين، والانتحارات الجماعية، وعودة النازية الجديدة، وارتفاع في جرائم الأطفال، بالإضافة إلى الكآبة الشديدة. كل مَن يثبت بأنه في داخل «الأزمنة الحديثة»، يتم الإشادة به بحماس، ويخلق وحشاً بثلاثة رؤوس: العقلانية، والمادية، والفردانية، وذلك المخلوق الذي ساعدنا، بفخر، على الوجود، بدأ بافتراس نفسه.

اليوم لا نعاني فقط من أزمة النظام الرأسمالي، وإنما من كل رأي عالمي، ومن الحياة التي تمر في تعظيم التقنية واستغلال الإنسان.

إنّ المادية الكونية شرعية بالنسبة للمُجسّمات السطحية والتفاعلات الكيميائية، بالإضافة إلى أنها دراماتيكية لمستقبل البقاء الإنساني. أن يتم قبول جنون التطور الهائل معناه ارتكاب خطأ فادح بفقدان وجودنا الأصلي، وتقليد

إمبراطوريات الماكنة والهذيان التكنولوجي.

بمجرد تقنين الشعارات، فإن عملية التصنيع والمكننة كانت موازية لتحسين وسائل التعذيب والإبادة.

الإرهاب الدولي، والخوف من البوسنة، وارتفاع حد النزاعات في الشرق الأوسط، وتلك الجروح المثكلة على جسد العالم في شوارع كلكتا، كل تلك الأحداث تؤكد بأن حنه أردنت كانت على حق عندما أثبتت في السنوات الخمسين، أن القسوة في هذا العصر لا يمكن التغلب عليها.

قبل بضع سنوات، تنافست قوتا العالم، فكان إخفاق الشيوعية سبباً في انتشار مغالطة أن البديل الوحيد هو الليبرالية الجديدة. في الواقع، فإن هذا تأكيد إجرامي، لاسيّما وأنهم مثل مَنْ يعيشون في عالم ليس فيه سوى الذئاب والخراف، قائلة لنا: «الحرية للجميع، وأن الذئاب تأكل الخراف».

هناك حديث عن إنجازات هذا النظام الذي كانت أعجوبته الوحيدة التركيز على خُمس سكان العالم ممن يشكلون ثمانين في المئة من الثروة، بينما البقية، ممن يشكلون الجزء الأكبر من الكوكب، يموتون من الجوع في حالة أكثر رداءة من البؤس نفسه. فمن الضروري التفكّر بما سُيفهم من الليبرالية الجديدة؛ لأنه بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يوجد أي شيء له علاقة بالحرية. على العكس من ذلك، فبفضل القوى المالية الضخمة، مع الموارد الدعائية والكماشات الاقتصادية، تتنافس الدول القوية في السيطرة على هذا الكوكب.

إنّه الاستبداد الاقتصادي على السلطة، الاستبداد الظالم، والسيطرة بأنظمتها على ديكتاتورية الجوع، تلك التي لم تعد تحترم الأيديولوجيات ولا الأعلام، لتنتهي بالتساوي بين الرجال والنساء، مع مشاريع الشباب واستراحة شيوخنا.

المثال الذي يمكن أن نستحضره على التجريد الإنساني هو دولة البرازيل: فإذا كان هناك أربعون مليون من الجوعى يقطنون مناطق شمال شرق البلاد، ففي سان باولو وحدها يوجد حوالى مليون من الأولاد الصغار بدون مأوى، أولئك الذين يسرقون في الشوارع حتى يتمكنوا من شراء الطعام في بعض الحالات، ما يفرض عليهم البغاء في طفولتهم، بالإضافة إلى الإغراء المادي، حيث كان بعضهم يتقاضون مئة أو مئتي دولار، ليُنفِّذوا أوامر مخصصة لارتكاب جرائم قتل، كما أنهم قاموا بعمليات خطف وقتل بعض الأشخاص بهدف بيع أعضائهم إلى تجار الأعضاء المنتشرين في العالم.

حدثني قس دومينكي، وأستاذ علم اللاهوت في جامعة سان باولو، بأن الشرطة الفيدرالية قامت بدراسة مفصّلة كشفتْ من خلالها أنَّ في السنوات

الثلاث الأخيرة، كان هناك أربعة آلاف وستمئة طفل قد قتلوا في البلاد.

آلاف من الأطفال في أمريكا اللاتينية يُصدّرون من بلدانهم الأصلية إلى أوروبا وإلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى اليابان، وتوجد أدلة كافية تثبت وجود بشر مذبوحين، وخاصة في البرازيل وهندوراس وغواتيمالا والمكسيك.

المحزن هو أن شقيقة مارثا بيجوني عرضت أمامي الأفعال الفظيعة المتشابهة التي تمّ القيام بها في الأرجنتين.

بالنسبة لكل إنسان فإن وجود مئتين وخمسين مليون طفلاً مُسْتَغَلِّين في العالم بمثابة العار والجريمة؛ فأولئك الأطفال مجبرون على العمل من عمر الخامسة والسادسة في مكاتب مخالفة للشروط الصحية، في رحلات شاقة من أجل بعض العملات وهذا عندما يكون حظهم جيداً، على اعتبار أنّ هناك الكثير من الأولاد الصغار يعملون في منظمات لها علاقة بالعبودية أو شبه عبودية دون حماية قانونية ولا حتى طبية.

هؤلاء الملايين من الأطفال أمّيون ونحيلون، وأقل مستوى من أولادنا الذين يذهبون إلى المدراس، بالإضافة إلى أنهم يعانون من أمراض مُعدية، فمنهم المجروح ومنهم المبتور، كما أنّهم يعانون من الإذلال بكل أنواعه.

يوجد مثل هؤلاء الأطفال في المدن الكبيرة في العالم، لاسيما في الدول الأكثر فقراً. ففي أمريكا اللاتينية وحدها، يوجد خمسة عشر مليون طفلاً يتم استغلالهم.

عندما يقترب الواحد من هذه الحقيقة، فإنه يتذكر مباشرة تاريخ الأطفال الذين كانوا يعملون في مناجم الفحم في فترة الثورة الصناعية. الأوضاع التي يبدو أنها حدثت، فعلياً، في السابق، فإنها اليوم تحدث أمام أعيننا. إنهم يمثلون انتكاسة الفتوح الاجتماعية التي تمّ تحقيقها بالدم عبر العصور. اليوم لا يوجد في العالم احترام لساعات العمل، ولا للتقاعد، ولا لحقوق التعليم ولا للصحة. حتى أنَّ الأمراض التي اعتقدنا أنه تمّ القضاء عليها عادت من جديد: مرض السل، والزهري والكوليرا.

إن حالة عدم الحماية والعنف الذي يتعرض له الأطفال، تكشف لنا بوضوح بأننا نعيش في زمن غير أخلاقي. إنّ هذه الحقوق الشاذة تبلعنا كدوامة، ما يجعل كلمات نيتشه حقيقية، عندما قال: «القِيَم لم تعد تستحق العناء».

في كل صباح، هناك آلاف من الأشخاص ممن يستأنفون البحث غير المفيد واليائس عن وظيفة ما. فهم المستبعدون، الفئة الجديدة التي تُحدِّثنا عن انفجار ديمغرافي كبير كعدم القدرة على هذا الاقتصاد من أجل ذلك الذي لا

يهتم به الإنسان على الإطلاق.

إنهم المستبعدون الفقراء الذين بقوا خارج المجتمع؛ لأنهم باقون. فبالفعل، لا يُقال بأنّهم «في الحضيض» وإنما «في الخارج».

المستبعدون عن الحد الأدنى من الاحتياجات الغذائية والصحية والتعليم والعدل، وعن المدن وكأنها من أراضيهم، هؤلاء الأشخاص الذين يُلقى بهم إلى الخارج يومياً، كما لو كانوا على حافة قارب في المحيط، هم الذين يشكلون الأغلبية الساحقة.

الكثير من القيم تم التخلص منها مقابل المال، والآن العالم كله، المنهك بسبب النمو الاقتصادي، لم يعد باستطاعته إيواء الإنسان.

للحصول على أي وظيفة، بغض النظر عن المبلغ الضئيل الذي يتقاضونه، يفني العمال كل حياتهم من أجلها؛ إذ يعملون في أماكن غير صحيّة: في القبو، وفي مصانع السفن، لتجعلهم تلك الأعمال، وبشكل دائم، تحت تهديد فقدان الوظيفة، ليبقوا بذلك مستبعدين.

من الواضح أن كرامة الحياة الإنسانية لم تكن مدركة في خطة العولمة؛ فاليأس هو الشيء الوحيد الذي وصل إلى مستويات لم يسبق به، على الإطلاق، أيّ مثيل. إنه العالم الذي يعيش في فساد وظلال، حيث القليلين ممن يدوّنون إنجازاتهم على حساب قطع الحياة عن الغالبية العظمى، ما جعل بعض الشياطين الفقراء يعتقدون بأنهم ينتمون إلى «العالم الأول»؛ للوصول إلى منتجات السوبر ماركت التي لا تُعدّ ولا تُحصى. بينما هناك فقير حظه سيئ ينام بهدوء، منغلق على نفسه في قلعته بالأجهزة والأدوات المخبأة، والآلاف من العائلات ينبغي عليها أن تتحمل بالدولار الواحد الذي تتقاضاه يومياً، إنهم ملايين المستبعدين الذين يشكلون وليمة الطعام الكبيرة لعلماء الاقتصاد.

عندما كنت أسير في الشارع أنظر إلى المشاريع التجارية المغلقة أو إلى جيران الحي الذين أوقفوني ليقولوا لي إنهم لا يستطيعون المتابعة في عملهم والحفاظ على ورشهم الصغيرة، التي لا تجني أرباحاً لتغطية الضرائب حتى، أفكر في الفساد والحصانة من العقوبة، وفي سوء التبذير والإسراف وفي تحلي بعض الأفراد بالأخلاق، ما ولّد فيَّ إحساساً بأننا في عالم يغرق، بينما ينتشر اليأس، وتزداد الأنانية والقيام بـــ «إنقاض مَن يستطيع» فقط. في حين أن أكثر ما يؤسف عليه هو استسلامهم في عمق الماء، في مكان منعزل غافلين عن الكارثة، في وسط حفلة لعرض الأزياء متبوعة برقص رجال من السلطة، طرشان في تهريجهم.

إنَّ التعليم العام الذي أوجده المفكرون الذين حكمونا في العصر الماضي، كان لديهم مبادرة لبناء تعليم ابتدائي حر ومجاني وإلزامي، ذلك الذي سيكون أساس هذه الدولة المنهارة اليوم.

في تلك المدارس الصغيرة التي كانت في مرحلة طفولتي، ظهر فيها تواضع المُدرِّسين الذين كانوا يُعلِّموننا أن نكون «باحثين عن الحقيقة» مثل (أوزان) الفتاة السمراء الهندية، ابنة مروض الحيوانات، الذي كان يبقينا متعبين، لكن في الوقت نفسه، عرف تثقيفنا بحنان وانضباط. في ذلك الوقت، كان عمري حينها أحد عشرة عاماً أو يزيد، كنتُ رَسَّام الصف، وفي يوم مثل العشرين من شهر حزيران رسمت بطباشير ملوّنة الجنرال بيلجرانو وهو يقسم أمام جيشه المكوّن من حاشيتين، وعبارة عن تشكيلتين: تشكيلة زرقاء وأخرى بيضاء، وسيكون الجيش قادراً من خلال ذلك العمل على الدعوة إلى المعارك وسحب رجاله إلى الموت أو إلى الانتصار؛ لأن ذلك الغطاء غالباً ما يكون متسخاً ومثخنا بالجراح، لاسيما وأنه كان رمزاً للوطن.

في بوتقة وحيدة تقريباً من هذا العالم، فإنّ أبناء الفقراء المهاجرين، وبينما يحدثهم آباؤهم عن الأراضي البعيدة، كانوا يستمعون في تلك المدراس بورع إلى تاريخ حياة أسلافهم، مثل: بيلجرانو وسان مارتين. أو كما في يوم الاستقلال، عندما رفعنا العلم على أصوات النشيد الوطني في الفناء وبقينا ننتظر الشوكولاتة الساخنة، مجمدين بسبب البرد البامبي.

هكذا تعلمنا حُبَّ الوطن، بشعور نبيل يجمعنا، لأن مَن يحب وطنه بشكل حقيقي، يدرك ويحترم الآخرين، على عكس الوطنية، التي هي أقل، حيث أصبحت شحيحة ومغرورة، فابتليت بالغرور الذي أبعدنا وجعلنا نكرهه. ذلك الذي حدث مع الكثير من القوى التي اعتبرت الوحيدة بسبب فعل القهر على الأمم الأخرى.

من تلك الليلة المشؤومة التي طرد فيها عدد من الطلبة من الجامعة بضربهم بالعصي؛ بهدف الزج بهم في السجون، اضطر الآلاف من الجامعيين والمثقفين إلى مغادرة الدولة، وبعد ذلك عندما عرفنا الأعمال الوحشية التي تم ارتكابها زمن الديكتاتورية، كان الشيء الوحيد الذي أنقذنا من الاستخفاف العالمي هو المستوى العالي لأساتذتنا ومهندسينا وبيولوجيينا وأطبائنا وفيزيائيينا وعلماء الرياضيات والفلك والكتاب والفنانين الذين تمّ استدعاؤهم كلهم من كل أجزاء العالم، ليضعونا فوق الدول المتقدمة. انبهر معماري من عائلة بيو من الأمريكيين -سكان أمريكا الشمالية- بسبب تنظيم مبانيهم. فابن أو حفيد أحد المهاجرين مثل ميلستين وصل به المقام إلى أن يحصل على جائزة نوبل بسبب ثورته التقدمية في مجال علم الوراثة، لكن في هذه الحالة

اضطر للذهاب إلى جامعة كامبريدج؛ لأنه لا يمتلك هنا حتى الأجهزة التي يحتاجها ليثبت أفكاره ونظرياته.

يعتمد كلُّ تعليم على الثقافة السائدة؛ وبسبب هذا الخضوع التقليدي لـ «الدول المتقدمة» -متقدمة في ماذا؟- مازلنا حتى الآن نعايش خطر انتشار الروبوتات. ينبغي علينا أن نعارض أنفسنا على إفراغ ثقافتنا، التي دمرها هؤلاء الاقتصاديون الذين يفهمون فقط الناتج المحلي الإجمالي -لم يتم تحقيق أي تعبير جيد أبداً-، حتى إنهم قلصوا التعليم على حساب المعرفة التقنية وعلم الحاسوب، تلك المفيدة بالنسبة للمشاريع التجارية، إلا أنّها تفتقر إلى المعارف الأساسية التي كشف عنها الفن.

هذا التعليم موجود فقط لمن يبقون حتى داخل جدران مجتمعنا، إنه عالم التقنية ونظام المعلوماتية، الذي يفترض بأنه يذهب بنا لتقريب بعضنا إلى الآخر، قاصداً بذلك، بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة، الهوة التي لا يمكن التغلب عليها.

في ربيع عام ١٩٩٨م، في انتظار إشراقة الفجر الأولى، التي دائماً أو شبه دائماً تبعث بالأمل، أتأمل في هذه الدولة المهدمة والمتسخة بسبب رؤساء الحكومة وجزء كبير من السياسيين. حتى الآن، في الأرجنتين، لاسيما في فترة مراهقتي، كان هناك الكثير من الرجال العظماء قد قاموا بتقديم جامعاتها إلى العالم، لكن اليوم، أصبحت جامعات الأرجنتين مجرّد أنقاض قلعة جميلة.

لهذا كله، زرتُ في مناسبات مختلفة الأساتذة الذين كانوا مضربين عن الطعام منذ أكثر من عام في «الخيمة البيضاء» أمام مجلس النوّاب. الرمز المثير للمشاعر لذلك التحفظ الذي سينقذ الدولة، إذ سنحقق استعادة القيم الأخلاقية والروحية لأصولنا. التعليم هو أقل الموارد الموجودة، لكنه الأكثر حسماً في إنشاء مستقبل الشعب، لاسيما وأنه قوته الروحية؛ ولذلك هو إخضاع مَن يهدفون إلى بيع الدولة كمكاتب ائتلافات تجارية ضخمة أجنبية. نعم، أساتذتي الأعزاء، استمروا في المقاومة، لأننا لا يمكن أن نسمح بأن يصبح التعليم عبارة عن سلعة.

ليس للمستعبدين عدالة لتدافع عنهم. ذهبت إلى القرية الحادية والثلاثين في الريتيرو، لأتضامن مع الكهنة المضربين عن الطعام؛ لنبذ القسوة التي كان الفاسدون يهدفون من خلالها إلى إذلال الناس، بهدم المباني غير الثابتة بالجرافات المتوحشة.

وأثناء العودة إلى البيت، استطعت، في منتصف الليل، أن أشاهد من خلال التلفاز كيف يهجمون على بعض العمال الذين رفضوا أن يُطردوا من المصنع،

كانوا يضربونهم بعنف، ويعاملونهم كمجرمين، لاسيما من قبل مجتمع لا يعتبر حرمان الرجال من حق العمل جريمة، وذلك بتجريدهم من كل شيء، حتى من قوانين العمل القليلة التي تحميهم.

كما أنني شاهدتُ الشرطة وهي تركض بالعصي والدروع الواقية تجاه الباعة المتجولين، بدلاً من سجن أولئك الذين سرقوا حتى العملات الأخيرة ولديهم الأموال والسلطة من أجل شراء هذه العدالة التي سقطت بقسوة صلدة وشديدة لا ترحم على سارق دجاج فقير. مثل الرجل الذي كتب لي من سجن قرطبي، يطلب مني فيها نسخة موقعة من كتاب «أبداً ليس أكثر»[13] . في حين كان ذلك الرجل أسيراً بسبب جرم صغير. في إيماءة شاذة، أطلق سراح المذنبين ممن تسببوا في نزيف الوطن.

(13) هو عبارة عن التقرير النهائي للجنة الوطنية المعنية برصد أسماء الأشخاص المفقودين في أحداث الأعوام 1979-1983م في الأرجنتين، وكان يعرف هذا التقرير الذي وضع في كتاب باسم «تقرير ساباتو»، على اعتبار أن كاتبه هو مؤلف هذه المذكرات أرنستو ساباتو. (المترجم)

بمرارة كبيرة، سمعت متأخراً أخبار العفو، فأغلقت على نفسي داخل البيت الصغير دون أن أتمنى رؤية أحد، في حين تعود إلى مخيلتي صور الرعب، وسيناريوهات التعذيب.

في السنوات التي سبقت الانقلاب عام ١٩٧٩م، كانت الأعمال الإرهابية التي لم يستطع أحد من أبناء المجتمع المتحضر أن يتحملها. أستحضر تلك الأفعال: المجرمون الدنيئون، ممثلو القوة الشيطانية، بدأوا بأعمالهم الإرهابية السيئة؛ بسبب ممارسة القوة، وفرض الحصانة التي سمحت للدولة المطلقة البدء بمطاردة الساحرات اللواتي لم يدفعن إلى الإرهابيين فحسب، وإنما إلى آلاف وآلاف من الأبرياء.

عندما لاح للدولة ذلك الكابوس، أمر الرئيس ألفونسو باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة المحاكم العسكرية بمحاكمة المذنبين في ذلك الرعب التاريخي. وبعد ذلك، كالدستور الأساسي، فإن الميثاق المدني سيعطي الكلمة الأخيرة. وفي النهاية سَيُسمّى باللجنة المدنية التي من خلال البحث الموازي قدمت أدلة على أعمال المحاكم.

كما تحدثنا في الكثير من المرات مع ماجدلينا رويث غوينثو، فإنّ الرعب الذي كنا نكتشفه يوماً بيوم، ترك آثاره علينا جميعنا، نحن الذين كُنّا جزءاً من CONADEP[14] ، إنّه الشعور المظلم بألا يعود أحد ليكون هو نفسه، كما يحدث عادة عندما ينزل إلى جهنم. سأتذكر دائماً الكمال الأخلاقي والروحي للشخصيات العلمية، والفلسفية، وأصحاب القيم الدينية والصحفية، الذين شكلوا لجنة.

(14) هو اختصار لاسم «اللجنة الوطنية المختصة بالأشخاص المفقودين»، وقد تمَّ تأسيسها بأمر من الرئيس الأرجنتيني رأوول ألفونسي، وكان رئيسها الكتاب الأرجنتيني أرنستو ساباتو، وكان الهدف الرئيسي للجنة هو التحقيق في الأحداث المأساوية التي عصفت بالبلاد خلال سنوات 1970 وحتى 1980. (المترجم)

كان التقرير قد كُتب من خلال مطبعيين متخصصين، من أولئك الذين تم استبدالهم عندما أخبرونا -وهم يبكون- بأنه من المستحيل أن يستمروا في عملهم. في أكثر من خمسين ألف صفحة تم تسجيل حالات اختفاء وتعذيب واختطاف لآلاف من البشر، معظمهم من الشباب المثاليين، الذين بقوا في التعذيب إلى الأبد في مكان منعزل تقطع فيه قلوبنا.

كما تسبب إرهاب الدولة بتدمير عائلات المختفين أيضاً. فالآباء والأمهات، بخيالهم المُعذّب، تناسوا وبعثوا الروح في أبنائهم، على الأقل دون أن يعرفوا وحشية الواقع. سيكون من الصعب حساب كم الآباء الذين ماتوا أو تُرِكُوا يموتون من اليأس والحزن، كم من الآخرين قد فقدوا صوابهم. كما حدث مع ميغيل إيتشيكسون، صديقي العزيز، الذي كان هدفه الوحيد في سنواته الأخيرة استعادة ابنته، في محاولة منه لتحقيق ولو جزء من الحقيقة والعدالة، إلا أنه واجه ذلك الرعب، وعانى من قسوة البعض من جهة، ومن عدم مبالاة الآخرين من جهة أخرى، لينتهي به المطاف إلى تحطيم معبده الرائع، ويُترك ميتاً من الحزن.

في اليوم الذي سلمت فيه CONADEP التقرير إلى رئيس الدولة، امتلأت «ساحة مايو» بالرجال والنساء والشباب والأمهات اللواتي يحضن أطفالهن بين أذرعهنّ، ليمنحوهم بهذه الطريقة تأييدهم ودعمهم لذلك الحدث المهم في تاريخنا. فبالفعل فإنّ كتاب «أبداً ليس أكثر» فرض علينا أن نكرر الأفعال التي جعلتنا -مأساوياً- مشهورين، عندما كتبت الصحافة العالمية كلها بالإسبانية كلمة «المفقود».

لسوء الحظ، فإنّ قوانين الطاعة الواجبة ونقطة النهاية، ثم بعد ذلك العفو، أجهضت كل تلك الرغبة السيادية التي كانت مثالاً على النضال الأخلاقي، الذي كان يمتلك التتمة المثالية لمستقبل وطننا؛ لأن المأساة التي عاشتها الأرجنتين لن تُنسى أبداً، لاسيما من أولئك الذين يمتلكون قلباً نبيلاً، ليس فقط ممن شهدوا ذلك الجحيم، بل أيضاً بالإدانة من قِبَل كل من له ضمير في هذا العالم. كما يتضح ذلك من البحث الذي أجرته دول أخرى، وتقدم هؤلاء على سبيل المثال القاضي بالتاثار كوراثون، الرجل الذي كنت معه خلال رحلتي الأخيرة إلى إسبانيا. إنّ الدم والرعب والعنف قضايا البشرية كلها، القضايا التي تثبت لنا بأنّنا لا يمكن أن نتجاهل معاناة أي إنسان.

مع الغضب والسخط الذي رأيته في يوم الإضراب الوطني، بغطرسة

متعجرفة، قامت الشرطة برمي الطعام الذي حضّره العمال في أوانٍ شعبية قديمة على الأرض. لأسأل نفسي بعد ذلك في أي مستوى اجتماعي نعيش، ما هي الديمقراطية التي عندنا، حيث يعيش المرتشون بحصانة، ويُعتبر جوع باقي أفراد الشعب تخريباً.

كما تم استبعاد الكثير من الناس عن أراضيهم؛ فقد كنت منذ سنوات مع هنود الليونز في ساحة مجلس النواب، فمنذ ما يقارب الأسبوع تقريباً، قاموا بإضراب عن الطعام للمطالبة بالأراضي التي -مثلهم مثل غيرهم من السكان الأصليين- تمّ اغتصابها منذ وقت الانتصار، فكانوا ضحايا الإبادة الجماعية التي تم تنفيذها بعيداً عن الحروب والأوبئة التي لا يُعرف مصدرها، بالإضافة إلى وجود عدد من الأسرى المحرومين من كل شيء. منذ ذلك الوقت، فرض عليهم الإخضاعُ وسوءُ المعاملة التي حصلوا عليها في كل مكان يعيشون فيه البقاءَ متحفظين بائسين، إذ لم يعودوا قادرين على تلبية احتياجاتهم الأساسية من الغذاء والصحة والمسكن والتعليم.

أما اليوم، فإنّ إحدى المشكلات الخطيرة التي ينبغي على الكثير من السكان مواجهتها، تحت خطر الدوران والهلاك، الحاجة إلى الهجرة باتجاه المدن الكبيرة، حيث يعيش الغرباء، المكرهون بسبب الجوع، وبسبب الجنون الوهمي أيضاً، كما حدث في ليما، التي في السنوات العشرين الأخيرة تضاعف عدد سكانها إلى ثلاثة أضعاف بسبب عودة سكانها الأصليين. المدن التي عاش فيها المتهورون والمنحطون، ممن يسكنون في الضواحي التي تنتشر فيها الكوليرا، والتهاب السحايا، والسل وغيرها من المصائب التي جلبت الفقر والهلاك. يسكنون، إذ من الممكن أن تستخدم ذلك الفعل في معنى كبير وغامض، أو يصمدون ويتحملون بحسرة، بعيدين ومفقودين.

هنا الشيء نفسه، في بوينس آيرس، عاصمة الدولة، التي في زمن ما كانت شبه صحراء، حيث كان فيها عدد قليل من السكان الأصليين، وبعد ذلك وصل الآلاف من الهنود البوليفيين ومن البارغواي الذين عبروا الحدود وكانوا عبيداً في بعض الأعمال التي كانوا يعملون فيها بالخفاء؛ بسبب نقص ما في إحدى الوثائق المطلوبة. ينامون على الأرض، يزاحمون بعضهم بعضاً وهم متسخون، لقد خسروا كرامتهم وطقوسهم القديمة.

في المجتمعات الأصلية، فإن الأعمال الأساسية للوجود كانت مرتبطة بإيقاع الكون والطبيعة. وما زال الكثير منهم، إلى اليوم، يحافظون على طقوسهم، مثل los mapuches[15] ، الذين يستعدون لاستقبال العالم الجديد باحتفالات مرفقة بالرقص والصلوات، تلك التي يدعون فيها الآلهة لتمنحهم الصحة والفأل

الحسن، حتى أن السنة التي تبدأ بهذه الاحتفالات تكون الأمثل في المطر وجني المحاصيل. من ناحية أخرى، فإنّ طقوس وتقاليد مجتمعاتنا بطلت، أو أصبحت محاكاة لا يصدقها أحد، نتيجة الهمجية التكنولوجية.

(15) هم الذين يُنسبون إلى Arauco من إقليم شيلي (ويُطلق على لغة أهاليهم). (المترجم)

بانقسام التفكير السحري والتفكير المنطقي، تم نفي الإنسان من وحدته الأصلية، لينكسر إلى الأبد الانسجام والتناغم بين الإنسان نفسه والكون الذي يعيش فيه.

منذ فترة شاهدت فلماً استثنائياً للأمير كوستوريكا حول فناء يوغسلافيا، ليؤثّر فيّ الفتق والتمزق مع إظهار قسوة تلك الإبادة. وعندما نظرت إلى ذلك الوجود وتعمقت في داخله القذر، وجدت أن مَن يتمسك بآلامه أفراد فقراء وقساة قلوب، فشعرت حينها بأن الاستعارة العظيمة في ذلك الوقت هي عندما يتفوق شيء ما على إنسانية الإنسان.

شعور مماثل عاد إليّ فجأة مرة أخرى، حينما كنت مسافراً في القطار. دخلت امرأة هزيلة، لون بشرتها بنية، تحمل معها كوردون قديم، يخرج صوت موسيقى مشؤومة. معلقة على صدرها بطاقة تفسيرية بأنها كانت هاربة من رومانيا. استمعت إلى لحنها، وتوقفت عن مراقبة تلك المرأة التي كانت بلا وطن وبلا مأوى، بغض النظر عما إذا كانت من رومانيا، أو من البوسنة، أو من يوغسلافيا سابقاً. كانت مجرد كائن تائه، مثل آلاف من اللاجئين في العالم، أو مثل مَن لا أرض لهم في البرازيل، أو مثل أولئك الذين يحاولون الهروب بيأس من ألبانيا العاجزة والفقيرة. هي واحدة من بين الملايين الذين جعلهم الوهن قادرين على تحمّل المسؤولية. الملايين الذين يجهلون الأيديولوجيات المختلفة أو الإحصائيات الاجتماعية، إلا أنهم يعرفون جيّداً بأنهم لا يتحدثون في التاريخ. عندما ابتعدتْ ناحية العربة الثانية، وجدتُ نفسي ألتفت بحزن إلى فتاة صغيرة تدير إليّ ظهرها. جعلتني أفكر بما يحدث: العالم الذي يبدو أنه يسير باتجاه التحلل، في حين أن الحياة تترقبنا بعيون مفتوحة، والكثير من البشر جوعى.

هزّني الخبر الذي قرأته صباح اليوم في الجريدة، فقمت بقصه والاحتفاظ به في أدراج أرشيفي، بين بقية تلك المقالات التي ساعدتني على العيش في هذه السنوات.

في فصل الشتاء القاسي، هربت امرأة -كانت ترتدي جاكيتاً قصيراً وبنطالاً- من مستشفى الأمراض العقلية، متمنية أن تذهب للبحث عن شريكها، ذلك الرجل الذي استفاد من إهمال مراقب الآلات وقام بسرقة قاطرة، وجعلها تعمل دون أن يواجه أي صعوبات، ليبدأ بذلك رحلته الأوديسية، على اعتبار أنه

كان يعمل في سكة الحديد، وكان حينها قد تعلم قيادة القطارات و«الكثير من الأشياء».

قالت للضابط الذي أوقفها بعد ذلك: «إذا كنتَ تعرف ماهية الحب، فستتركونني أتابع سيري»، لكن تمّ إحضارها إلى مركز الشرطة، ودموع اليأس تهطل، قالت صارخة: «أأنت لم تفعل أي شيء من أجل الحب؟».

كم أنّ الإيماءات أكثر إنسانية من الكثير من الأفراد الذين يركضون في مدينة ما، حيث أعمتهم مشاريعهم.

أردت أن أنقذ هذه الحكاية بين أوراقي، لأنّه عندما يقودنا التفكير، بطريقة ما، إلى حافة الاضطراب العقلي (الذهان) الجماعي، فإن هذه الأعمال تبدو هي الأقرب إلى الخلاص.

إنَّ مَنْ يحبونني يطلبون مني عدم الاستيقاظ مبكراً، يخشون على صحتي؛ الأطباء الذي يفحصونني، ويدرسون حالتي. في الواقع، فإن أنسنتي هي واحدة من عواقب المعاناة. فهل سيكون هذا تبريراً للألم؟

حاولت اليوم أن أستريح على الأقل حتى الساعة الخامسة، لكنني فوجئت بنوع من الرؤية، بذلك الذي بدأت به شيئاً فشيئاً؛ تملكتني أمور غير مستقرة، في حالة شبيهة باللاوعي، إلا أنني رغم ذلك فرضت حالتي على نفسي، وهكذا أمضيت وقتاً طويلاً في محاكاة ذاتي بين الواقع والهذيان. حتى إنني بدأت بالعودة إلى السرير، وكشفت عن ذاتي وتأملت أن يُهدِّئ البرد من غضبي.

شيء من الضباب، له علاقة مع الواقع الذي نعيشه، من اللاوعي، كحفيف الأوراق التي تذكرني بما رسمته في هذه السنوات الأخيرة: هذه الكائنات المدهشة التي خرجت من عمق روحي، الأبراج التي انهارت، الطيور المحلقة في السماء الملتهبة. لا أعرف معنى ذلك، ربما يكون إنذاراً، ربما يكون تكملة لما عانيته أثناء كتابة مشاهد محددة من خيالاتي، مثل «تقرير حول العميان».

لم أستطع النّوم من جديد، أشعلت المصباح داخل غرفة الدراسة المعتمة. رأيت على طاولتي الرسائل التي تحتوي على مقتطفات سأرفقها في هذا الكتاب الذي جعلني أفعل ذلك دون سابق إنذار، تلك المقتطفات التي خرجت من روحي، وليس من رأسي، لأدوّن من خلالها مخاوف وأحزان هذه السنوات الأخيرة.

راجعتُ الأوراق، بعضها، أكثرها، قمت بوضع بعض العلامات، تتخللها تصحيحات لا تُعدّ ولا تُحصى. بسبب اليأس الذي حل فيّ، حاولتُ أن أنسى هذه المهمة، إلا أنني عدت إلى تكرارها، لتصبح مثل مهووس ومثل ضربات الأكف داخل رأسي.

في النهاية تغيّرت، جلست في الحديقة أنتظر طلوع الفجر تحت سماء ملبدة بالغيوم المبشرة بقدوم العواصف. أقضي بعض الوقت جالساً، حتى يدعوني غلاديس لتناول طعام الإفطار، أثناء تناولي الطعام أكون أقرأ في العناوين العريضة الواردة في الجريدة: الأزمة الاجتماعية، البطالة، الفساد، الحصانة، الوضع العالمي بشكل عام، وهذا كله يكفي لزيادة الحزن والحيرة، لفت نظري عنوان، يقول: «في غضون أسبوع واحد يموت خمسمئة شخص معظمهم من النساء والأطفال في إندونيسيا». لأتذكر حينها التعبير الذي وصف دانتي من خلاله جهنم: «وتسيل من عيونهم الدموع الممزوجة بالدماء، وتزحف تحت أقدامهم الديدان المثيرة للاشمئزاز».

وبعد ذلك ذهبت إلى دراستي وكنت آمل وصول ديغو الذي سيعود كل صباح

بحنانه ليسترد وعيي، سنتحدث طويلاً، وبعد ذلك سنتمكن من العودة إما من شوارع الحي أو عن طريق المحطة، حتى أنني يمكنني أن أستعيد طاقتي لمتابعة الكتابة بعد ذلك.

خطورة الأزمة أثرت علينا اجتماعياً واقتصادياً. وهذا أكثر شيء: أصاب الجفاف السماوات والأرض، والطبيعة، وذلك النموذج الأصلي لكل جمال يفقد العقل.

وجد كوكبنا في حالة من الخراب، وإذا لم تؤخذ التدابير اللازمة والمستعجلة، فإنه ذاهب في اتجاه يجعله غير صالح للعيش خلال ما يزيد عن ثلاثة أو أربعة عقود. ينقص الأكسجين بطريقة لا تُردّ بسبب حمض الكربون الذي ينتج من عوادم السيارات ودخان المصانع، بالإضافة إلى تدمير الغابات. الإنسان يحتاج إلى الأشجار ليعيش، إلا أن الظاهر أنهم لا يعرفون ذلك ولا يهمّهم مَن قطع الأشجار في أدغال الأمازون، والعالم ساكت على ذلك كله، دون أن يُحرّك ساكناً. الدول المتطورة تُنتج أربعمئة مليون طن في السنة من المخلفات المسمومة: الزرنيخ والسيانيد والزئبق ومشتق الكلور الذي ينصبّ في مياه الأنهر والبحار، ليكون تأثير ذلك ليس على الأسماك فحسب، بل على مَنْ يتغذى عليها أيضاً. غرامات قليلة فقط من السموم كافية لمحق الوجود الإنساني.

نحن نخاطر في استهلاك النباتات التي يتم رشها بالمبيدات الحشرية، لتلحق بذلك الضرر في الكبد والكلى، وتسبب اضطرابات في الدم والغدة الدرقية بالإضافة إلى سرطان الدم، كما أنها تؤثر أيضاً على نظام العصب المركزي وعلى العينين، ومن بين المبيدات السامة المخيفة التي يتم استخدامها «العامل البرتقالي» Agent Orange.

لم يُفسّر لنا العلماء بَعدُ ماهية الطريقة التي يمكن من خلالها النجاة من النشاط الإشعاعي المنتشر بسبب تأثير المفاعلات النووية. ثمانية ملايين إنسان مازالوا يعانون من تأثيرات المأساة الذرية التي أحدثها مفاعل تشرنوبل.

خلال زيارته إلى الأرجنتين، تحدثتُ مطولاً حول هذه الموضوعات مع رئيس الاتحاد السوفيتي آنذاك ميخائيل جورباتشوف، لأن الكثير من علماء بلاده ألقوا في بحر البلطيق كميات كبيرة من «أنوية» المفاعلات، هل يهدفون بذلك إلى إيقاف عملها؟ بين هذه الفضلات عثروا على منتجات مخيفة مثل البلوتونيوم، الاسم الذي يشير إلى «آلهة الشر» في الفكر الإغريقي «بلوتو»، والمعروف بإله النار. لا نعرف ما فعلته معظم الدول المتقدمة فعلياً، لكنها اللامبالاة المقلقة مع تلك الردود على مطالبات وكالات مختصة لحماية البيئة مثل «منظمة السلام الأخضر». يبدو أنه لا يوجد حديث بأننا على وشك التدمير المادي للكوكب، على اعتبار أنَّ أكثر ما يتم الحديث عنه الآن هو ما يتعلق

بالفردانية والجشع والطمع.

على الرغم من أخطار المنتجات المشعة، إلا أن تخزينها، بالنسبة لبعض الدول، عبارة عن القوة التي لا تُقدر بثمن. أكثر الدول التي عانت من الحرمان وهضم الحقوق هي الهند، التي كانت أمام خيارين: إما أن تُعلنَ مفتخرة بأنها قوة نووية جديدة، أو تتعرض لخطر بيع ما تنتجه كمخلفات ذرية. الشيء الذي تكرر في الفرص التي حظيت بها بلادنا، والذي كان على وشك الحدوث فيها.

الخطر الآخر الذي ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار هو ثقب الأوزون، الثقب الذي يعادل حجمه مساحة قارة أفريقيا! بالإضافة إلى ارتفاع درجات حرارة الكوكب، وأثر انبعاث الغاز الصناعي وتأثير «البيوت البلاستيكية»، كما أنَّ مستقبل الدول الجزرية في خطر؛ بسبب زيادة مستوى مياه الأنهر والبحار، دون أن ننسى الخطر المحدق بالأنواع المنقرضة من الحيوانات والنباتات: تشير التقديرات إلى أنّ سبعين نوعاً يختفي يومياً.

في العصور القديمة، وفق ما ذكره بيرديايف، كان المشروع العالمي الإنساني رسالة ومهمة القوى الإلهية أيضاً. إلغاء الوجود وسحق المبادئ الأخلاقية والدينية العظيمة لكل الأزمنة، ليهدف العلم إلى تحويل المختبرات في الأجواف الاصطناعية. هل من الممكن أن نفكر بشيء أكثر شيطنة وضرراً من الاستنساخ؟ هل يمكننا الاستمرار في تنفيذ مهام الزمن يوماً بيوم، لاسيما عندما يُصنع من وراء ظهورنا حياة مصطنعة؟

لا يوجد هناك شيء يستحق الاحترام.

على الرغم من الفظائع التي يمكن رؤيتها، فإن الإنسان يتقدم بحفر الفجوات الأخيرة والفترات الفاصلة حيث بداية الخليقة. بالعناوين العريضة، علمنا بأن الاستنساخ أصبح بالفعل نجاح. ونحن، كل البشر على الكوكب لا نريد هذا التدنيس الأخير للطبيعة البشرية، ماذا يمكننا أن نفعل أمام اللاأخلاقية التي عرضها علينا البعض؟

حصلت الإنسانية على الطبيعة حيث كل عنصر فيها منفرد ومختلف. الانفراد والاختلاف هو كل الغيوم التي نتأملها في الحياة، بالإضافة إلى الأيادي البشرية والأشكال وحجم الأوراق، والأنهار، والرياح والحيوانات. كل حيوان متطابق مع الآخر. كل إنسان مجهول وذو قداسة مميزة.

الآن، أصبح الإنسان على وشك أن يُصبح نسخة واحدة: العيون الزرقاء، اللطافة، الجسارة، تخدير الألم أو الفاجعة، الاستعداد من أجل العبودية. تروس الماكينات، عوامل النظام. ما أبعد هولديرلين!، عندما يشعر البشر بأنهم أبناء الآلهة!

الشباب يعانون: لم يعد لديهم رغبة في إنجاب الأطفال.

لم تعد هناك شكوك أكبر من ذلك.

هكذا، مثل الحيوانات في الأسر، شبابنا... أجيال لا ترغب في أن تكون آباء. هذا هو حال العالم الذي نتحدث عنه الآن.

فقدان الشهية، الشراهة، إدمان المخدرات والعنف، هذه علامات يأس أخرى في هذا الزمان، أمام احتقار وازدراء الحياة التي بُعثت لنا.

كيف يمكن أن نوضح لأجدادنا بأننا استحضرنا الحياة لمثل هذا الظرف الذي تُرك فيه الكثير من الشباب يموتون بسبب عدم الأكل أو بسبب استفراغهم للغذاء؟ بسبب عدم الرغبة في العيش أو بسبب الامتثال للأوامر والإنذارات التي طبعها التلفاز في أذهاننا: إنه ضمور التاريخ.

مئات الآلاف من الشباب مدمنين على المخدرات، يمشون مثل العصابات في كل مكان من هذا العالم.

كل شيء يوحي إلى أن الأرض في طريقها لتتحول إلى صحراء مكتظة. ليست مصادفة أن يتم في آخر المؤتمرات المتعقلة بالبيئة التخطيط لخوض الحروب في مستقبل ليس بالبعيد؛ للحصول على مياه الشرب.

هذا المشهد الجنائزي والمشؤوم هو عمل ذلك الصنف من النّاس الذين ضحكوا من الفقراء الشياطين الذين منذ سنوات عديدة حذرناهم منهم، مدعين أنهم كانوا خرافات نموذجية للكتّاب والشعراء الخياليين.

حسب ذلك الاستثمار الدلالي الذي تجلبه اللغات، تشير عبارة الواقعيين إلى الأفراد الذين تميزوا بتدمير كل جنس من الواقع، من الطبيعة الأكثر سطوعاً، بل حتى تدمير روح الرجال والنساء والأطفال.

على الرغم من أن الأفكار المتفائلة تجادل بأن الإنسانية عرفت دائماً كيفية التغلب على الأحداث الهمجية، فإننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال الاعتماد على هذا النوع من المغالطات. أولاً؛ لأنه يوجد حضارات سابقة لا يمكن استعادتها مطلقاً، وثانياً، لأننا نمر بأزمة عامة على مستوى الكوكب كله.

قبل بضع سنوات، كانت القدرة المدمرة للعالم أعلى بخمس آلاف مرة من تلك التي كانت في فترة الحرب العالمية الثانية، وقوة القنابل الذرية الموجودة الآن كسلاح احتياطي أكبر بمليون مرة من القنبلة التي ألقيت على هيروشيما.

يموت طفل صغير من الجوع كل ثانيتين. الفعل الإجرامي هو أنّ نصف في المئة من نفقات السلاح يمكن أن تحل مشكلة التغذية في كل العالم. لا شيء

يجعلنا نعتقد أن هذه الأرقام تتغير نحو الأفضل. هي الأزمنة التي يبدو فيها الإنسان وسلطته فقط قادرين على العودة إلى ارتكاب الشر. وضعنا في القوة العاملة تأثيراً تدميرياً، لدرجة أن مرورها، كما أشار بوركهارت، يمكن أن يمنع نمو العشب إلى الأبد.

كنتُ في مقهى الريتيرو حيث اقتربتَ لطلب بعض القطع النقدية، وأنا سألتك إذا كنتَ راغباً في الجلوس. كنتَ أحد أولئك الكثيرين الذين يَسْتَجْدُون براءتهم كالملائكة المستبعدين عن السماء الضالة والغريبة. بالطبع فإنك لا تعرفني، ليساعدني ذلك على مشاركة اللقاء؛ لأنك، مع صغر سنِّك، جلبت نظرة العجز بسبب تلك الفظائع والأعمال الوحشية -التي في وقت قصير- حققت في الجسد والروح الدمارَ الذي جلبته السنوات.

عندما كنت أجد بعض الفرص لأعود إلى المقهى نفسه، كنت أبحث عنك على أمل أن أسلّم عليك. إلا أنك لم تكن موجوداً، ومع ذلك اكتشفت وجودك مع مجموعة من الفتيان الآخرين، وذلك أثناء عودتي إلى البيت ليلاً، كنتَ مع أولئك الذين نظرت إليهم وهم يفتشون بين أكياس النفايات، يدخلون فيها أياديهم الصغيرة المتسخة، قاصدين الانتفاع بثمنها، بهدف اللعب على الأراجيح وركوب الأحصنة الدوارة. لذلك، لا أعرف لماذا أفكر في الشاعر آرثر رامبو. ربما لأنه ينتمي أيضاً إلى عرق أولئك الذين يغنون بألم وعذاب. رامبو الذي كان يتغذى فتات الخبز التي كان يلتقطها من سلال المهملات في شوارع باريس، وينام خلال الليل مكوماً نفسه أمام البوابات، تذكرت كلماته: «حقيقة الحياة غائبة».

وحبست نفسي في هذا البيت الصغير، أجلس على حافة السرير، أعيد النظر في لوحة البيت التي أهديتني إياها، والتي افترضت أنها تشير إلى بيت أحلامك، مع الورود والنوافذ الصغيرة والستائر، وتدفئة كبيرة في الوسط ينبعث منها دخان من الألوان، كل ذلك السحر الساحر للأطفال الذين لم يطمسهم البؤس على ما يبدو.

كتبتُ هذه الأسطر التي ربما لن تقرأها أبداً؛ أردت أن أحميك بطريقة ما. فكم هو مرعب هذا العالم!

أجريت محادثة مطوّلة حول هذه الموضوعات وغيرها مع سيوران عام ١٩٨٩م. منذ سنوات تلقيت أنباءً عن رغبته في لقائي؛ أصررت أن أفسر له كل شيء كرسائل مشفرة، تكررت في مناسبات مختلفة. حددنا موعداً في بيته الذي يقع في شارع أوديون، على بعد خطوات من الفندق الذي نزلت فيه في بوليفراد ساينت جيرمان.

صعب عليّ أن أرفض عرضه اللحوح بأن ينتظرني عند المدخل؛ خشية أن أفقد نفسي، ذلك الذي عزَّز فيّ مرة رغبته الحقيقية لرؤيتي. بعد بضع دقائق وصلت إلى بيته، الذي كان أحد تلك المباني الفرنسية القديمة، بعد ذلك صعدت سبع درجات راجلاً، وتوقفت أمام باب خشبي حيث كان معلقاً عليه في مكان مخصص chambres de bonnes «للغرف الجديدة»، لوحة مكتوب عليها: «هنا سيوران».

على ما يفترضه الكثيرون ضمنياً ومأ أفكر به أنا نفسي، فاجأني ذلك الرجل اللطيف، أسف كثيراً، فهو ينصح بالعدمية التي لا تتطابق معه. على اعتبار أنه كان متشائماً بشكل واضح، وأحياناً يخضع للآخرين، شكاك ولا يصدق أيَّ شيء. لكنه دائماً كان مبتسماً. في لحظة تراه خجولاً ولا يبالي، وأحيانا العكس، تجده واحداً من أولئك الرجال المتضامنين مع «الجمهور البائس»، كما قال مالارميه، في البحث عن الشخص الذي عبّر له عن اشمئزازه وآلامه، ربما يمكننا أن نشير إلى عبارة ستيرمبيرغ: «لا أكره الإنسان، أشعر بالخوف منه».

تحدثنا بأخوية لأكثر من أربع ساعات، حتى إنني اضطررت إلى الاعتذار منه لأذهب؛ لأن صديقي سيبيرو ساردوي كان ينتظرني في مقهى ليس بعيداً عن المكان الذي كنتُ فيه. اكتشفتُ في سيوران ثبات واتساق رجل حقيقي، وشاركنا التفكير بالتشابه الملحوظ بيننا. كالحاجة إلى إزالة الغموض عن العقلانية التي تجلب لنا اليأس والشمولية فحسب. وكتلك الحماقة التي كانوا يعتقدون بها في تقديم الحضارة وتقدمها. «يمكن لكل شيء أن يلج في الإنسان إلا الحاجة المطلقة، التي ستنجو من فناء الدين على الأرض». كلمات الفيلسوف الواضح في فكره والذي كان نتاج حيرته وآلامه وعذاباته.

لديّ قناعة بأنّ ألمه الميتافيزيقي كان يمكن أن يُخفّف إذا كان قادراً على كتابة القصص المتخيلة، بسبب شخصيته النقية، ولأن المشكلات الخطرة للحالة الإنسانية ليست مناسبة للاتساق الترابطي، وإنما للوصول فقط إلى تعبير «الأسطورة الشاعرية»، المتناقضة والمفارقة مثل وجودنا.

«في الحزن يصبح كل شيء عبارة عن روح»، قال في واحدة من مقالاته التي ساعدت على كشف زيف العمل التافه وابتسامات النفاق في هذا الزمان.

جئت إلى سانتاندر للحصول على جائزة مينديث وبيلايو، وهذا الصباح أردت أن أذهب مع إلفيرتا لرؤية البحر من المنحدرات، ربما للمرة الأخيرة. وبينما كنت أستمع إلى تكسر الأمواج، والشمس بدأت تتغطى بين غيوم الغروب، غزاني ذلك الحزن الذي كنت قد شعرت به أمام ذلك الجمال الذي لا يوصف.

كما أشار بيردييف، مفارقة الأزمنة الحديثة وقعت في أن الإنسانية عادت ضد الإنسان. قداسة الذكاء دفعتنا إلى حافة الهاوية، والشعارات هيمنت على العالم مرة واحدة، قصد عبثاً أن يرد على ذلك الذي يتمسك به كلغز أو كبكاء. وصلنا إلى الجهالة من خلال العقل. تساءلتْ فرجينيا وولف: «ما هو الاسم الذي لدينا لنطلقه على الموت؟ وما هي الجملة المناسبة بالنسبة إلى الحب؟ لا أعرف ذلك. أحتاج إلى لغة أساسية كلغة العُشّاق، إلى كلمات كتلك التي يستخدمها الأطفال».

الإنسانية الغربية في حالة إفلاس، وفي نهاية القرن وجدنا أنفسنا غير قادرين على أن نسأل عن الحياة وعن الإنسان.

بمجرد تأكيد قوته، فإن العقل الواعد كان غير قادر على حل المشكلات الأساسية، وبالتالي، فإنّه لم يكن مستكفياً من سرقة النار لإنارة التاريخ. عند الكشف عما هو مستور، اكتشف الإنسان عجزه وعدم استقراره، إذ في القرون الأخيرة أضعنا فرصة بناء تاريخ يكون فيه الإنسان بعيداً عن بطولة أحداثه، إلا أنه كان العنصر الأساسي فيه بدلاً من أن يكون المدان الجديد.

قبل سنوات، وكمسيح بين اللصوص، قتلوا في غرناطة الشاعر المعروف فيدريك غارثيا لوركا. في كثير من الأحيان كنت أفكر بأن تلك الجريمة المرعبة هي واحدة من رموز هذا العالم الذي قضى على القصيدة وشيّد مكانها القسوة والرعب.

في خضم الحزن العميق، وعندما يتم البحث عن المطلق، لا نعرف ولكن يمكننا أن نحس وجود المعاملة المتوسطة والاحتقار، لذلك فإنّ رامبو الشاب الرائع والبائس، كتب في الأسطر الأولى من جحيمه: «بالأمس، إن لم تخني الذاكرة، كانت حياتي وليمة فيها كل القلوب مفتوحة، وتنسكب فيها جميع الخمور بأنواعها بدون توقف. ذات مساء، أجلست الجمال على ركبتي، ووجدته مرَّاً، وشتمته»

عندما أمشي في الساحة، وأتأمل جمال نباتات الجكراندة، أو عندما أنظر إلى وجوه لا توصف ولا تزال ترتجف أمام سماء عاصفة، أو تلك التي ما زالت ترتعش أثناء تلفظ الكلمات السامية، أفكر في بؤس البشر الذين يقصدون الجمال، إلا أنهم مكرهون على تحمّل ابتذال هذه الثقافة حيث كان الشعور

الذي يلازمهم في كثير من الأحيان، قد فسد بمتعة ناقصة، بتحمس أو أشياء زخرفية مثيرة للشفقة. الخطاب الشعري المحزن والأخير في هذا القرن المحطم بين هذيان العقل وقسوة الصلب.

قال إيلي ويزل إن في معسكر أوشفيتز بيركينو مات الإنسان وفكرة الإنسان، وهذا ما حدث في الفترات التي يبدو أنه قد حصل فيها تمزق وانقطاع، إننا تعرضنا لخطر الوجود المستأثر من خلال الفراغ.

كما أكد دوستويفسكي في روايته «الشياطين»، بإنّ الوجود الإنساني ينجذب إلى الخَلْق قدر انجذابه إلى التدمير، وهذه واحدة من تلك اللحظات، فنحن نعيش كما لو أننا وصلنا إلى الحدود الأخيرة من الوجود، متأكدين من قدرتنا على البوح مع غوته، بأنّ «الإنسانية ستنتصر في النهاية». على العكس من ذلك، ففي الأفق يبدو أنهم يسمعون حشرجات الموت الأخيرة. للنظر فقط إلى أي إعلامي أو رؤية العناوين في أي جريدة لندرك أننا أصبحنا المخلوقات الشريرة التي رسمها غويا في خضم بشاعة الضجيج والهرج والمرج. في «أحلام العقل توقظ الوحوش» تنبأ هذا الرسام العظيم أنه خلال النهار سيصف السيدات البدينات في المحكمة، وبعد ذلك انغلق على نفسه لجعل هذه الرسومات كالقيء الذي يفضح زيف عمى الفلسفة الوضعية لحركة التنوير.

وفي النهاية وصلنا إلى «العالم المكسور» الذي تحدث عنه غابرييل مارسيل، فبينما يتفتت الواقع إلى حطام، فإنّ الإنسان يتخبط عقلياً وروحياً.

ربما لن نفهم كل ذلك الذي أراد أن يقوله كافكا لنا، والذي عبّر عنه في واحد من أكثر أعماله كشفاً وعمقاً في القرن العشرين، الفوضى وتخاذل الإنسان المعاصر في كون قاس وغامض. سقوط الإنسان في واقع أخذت فيه البيروقراطية والسلطة حيّز الميتافيزيقا والآلهة. تائه في عالم من الأنفاق والممرات، والاختصارات والتشعبات، فبين المناظر الطبيعية والزوايا المظلمة، يرتعد الانسان أمام استحالة تحقيق أي هدف وفشل كل لقاء.

الألم يحطّم الزمن

في عمقها لا يوجد جذور

بل يوجد مَن يقتلعها

هوغو موخيكا

منذ أن توفي خورخي فيدريكو تحطم كل شيء، ومع مرور الأيام، لم أتمكن

من التغلب على هذا الظلم والاضطهاد الذي يخنقني.

كما فقدت في غابة مظلمة ومعزولة، أبحث عبثاً للتغلب على الحزن الذي لا يُقهر. من قبل -متى من قبل؟: قبل أن يحدث ذلك البؤس-، في لحظات من الكآبة، تمضي الساعات في بيتي الصغير المخصص للرسم، أعمل على بعض اللوحات حتى يغادرها الخراب، إلا أن الزمن الآن توقف. بقي اليأس لأشعر بالهجران في صحراء واسعة لا حدود لها بين هذه الجدران الأربعة.

ثمل من الألم، وبين الخرائب الكامنة في ذهني، يتردد صدى بعيد لبعض أبيات فاليجو: هناك ضربات في الحياة صعبة للغاية،

مثل ضربات العقاب من الله.

يمضي النّهار تدريجياً، وأجد نفسي محاطاً بالظلام الذي ينتهي بزيادة الشكوك والإحباطات والكفر بالله الذي يبرر الكثير من الآلام. تغزوني نغمات المساء مع حضور غريب لم أدركه من قبل. وبالفعل فإنّ تغريدات الطيور شيء آخر، أو لا شيء غيره. ضوء الشفق يتسرب على كل شيء، كما لو أنه يرقى إلى واقع جديد، أما الآن فقد تغيّرت الهيئة بسبب المعاناة.

مطر الخريف الناعم يتساقط على الحديقة، وعلى الطيور والأشجار أيضاً، فمَن يستطيع معرفتها؟، ربما يتأملنّ مثلنا.

كم من الأزواج الذين يسيرون في شوارع هذه المتاهة من بوينس آيرس، يتجمهرون لحماية أنفسهم من البرد، ففي هذه إيماءات حب مستحيل ويتعذر تفسيره.

أنظر من نافذة بيتي الصغير إلى الحديقة. نبات الياسمين من كابو، الوردة الصينية، المغنولية وغيرهن من النباتات والورود اللواتي يذكرنني بـ خورخيتو. وبالتالي فإنّ الجمال يعود ليلقي بظلاله عليّ. أنظر إلى لا شيء. ألاحظ الأشياء بدون اهتمام: ممحاة، قلم، دفتر، ساعتي. يا إلهي، ما هذا؟

تمر طائرة بيونغ بصوتها العالي، إلى أين تذهب؟ ومن أجل ماذا؟ على طاولة عملي أشاهد عنكبوتاً يعبر بصعوبة تجاه هدفه أيضاً. لكن ماذا؟ على الرغم من صغره، فإن لديه هدفاً صغيراً مثل حجمه. تابعت تحركه، حتى وصوله إلى حافة الحائط وينزل بواسطة أحد خيوط شباكه؛ مع كم من الأمل أتبعه ملاحظاً بينما يختفي عن نظري ذلك الكائن الصغير جداً الذي يعيش بدون أن يطرح الكثير من الأسئلة، وبدون تلك الأسئلة التي نفعلها نحن لمحاولة الإجابة على (ماذا؟).

يبدو أن حياتي ستنتهي مثل «النفق»، مع نوافذ وأنفاق موازية، حيث كل

شيء مستحيل لا نهاية له. كم هو غريب! وكم هو مفزع أن تقترب من الموت وتعود إليك هذه الاستعارات المحزنة!

حدثتني إلبيريتا عن المسيح، وقالت لي تشجع وتأمل شعوره الديني بالحياة وبالألم.

يوجد على مكتبي صورة لخورخي، أنظر إليه الآن، أنظر إليه باشتياق لضمّه إلى صدري. كيف أريد العودة إلى الوراء؟ متى سينتهي هذا الهم المتعب والمطلق؟

غاص الفكر في الدموع. إلى أين عادت الكلمات الآن؟ أود أن أمنح كل كتبي -كم هي مسكينة، كم هي مثيرة للسخرية، ومحفوفة بالمخاطر، وغير صالحة، كم هي لا شيء بجانب هذا الفقدان- وسأمنح مكانتي، تلك التي وضعتها بين الاقتباسات، والأوسمة والتكريمات والجوائز؛ لاستعادة القرب من خورخيتو.

عدت من ألبانيا، حيث حصلت على جائزة كاداريه، كنت حينها مشتتاً ومحطماً نفسياً، إلا أنني ذهبت لأنني لا أريد أن أرفض دعوة ذلك البلد الفقير الذي افتتح هذه الجائزة بي أنا.

كان في مدينة تيرانا أحد أكثر الثنايا المثيرة في الحياة؛ ذلك الشعب الذي عانى من الحكم الاستبدادي الطاغي، حيث لا يزال هناك بقايا الديكتاتورية، وجوه أبنائه المتشققة بسبب المعاناة، والمخابئ المظلمة التي قام ببنائها الطاغية. استمتعت مثل مُحْسن، مثل ملك، مثل ابن محبوب.

كان هناك رقص وغناء لا يُنسى في حفل توزيع الجوائز. أعطاني شاعر جرة مليئة بالتراب أحضرها من القرية التي ولدت فيها أمي، وكاتب كبير عرض عليّ دفتراً كان يحتفظ به بالخفاء في السجن، مكتوب عليه بحروف صغيرة، كما كان لديه نسخة من نص لكامو، بالإضافة إلى نصي «ملاك الجحيم». قال لي وهو يبكي إنه في السنوات الطويلة التي أمضاها وهو سجين سياسي داخل أقبية زنازين السجن المظلمة، كان يقرأ، وبشكل يومي وفي السر، هذه الصفحات، من أجل أن يكون قادراً على التحمل والصبر. كنت أرتجف لأن كلماتي خدمت ذلك البطل، من الذين يعيشون في هذا البلد، والذين يعودون من جديد لخوض الحرب.

في اليوم التالي ودّعونا بالموسيقى والورود، كان شيئاً مثيراً أكثر من انهياري في ممرات مطار فينا، ركضت إلبيرا حينها مسرعة لإحضار الطبيب، وبعد ذلك بساعات استطعنا أن نسافر إلى مدريد.

بالعودة إلى البيت، بدأت أفكر بذلك الذي رأيته، أتأمل تلك الأرض التي كان

يعيش عليها بعض أجدادي، الشعب الذي عانى كثيراً ولسنوات من الخضوع، وكنت أتذكر دائماً تلك الأمهات اللواتي ينظرن إلى أبنائهن وهم يموتون بطرق بشعة، واللواتي رغم ذلك كنّ يتسمن بكرمهن وجودهن. في عزلتي داخل غرفتي، كنت مكتئباً وحزيناً بسبب موت خورخي، سألت نفسي ماذا يخبئ الله وراء هذه المعاناة؟

أتجول في هذا البيت الذي تشاركنا فيه كلنا ذات يوم، والذي أتجول فيه اليوم وأنا أفتقدك، أتوقف مع ذاتي أمام صورتك يا خورخيتو. سلفينا أوكامبو، الشاعرة الكبيرة كاتبة القصص التي لا تُنسى، هي الأخرى فعلت كل ما تسطيعه في الفترة التي كنا فيها قريبين جداً. قبل سنوات طويلة، طويلة جداً.

كنت أتأمل ببطء ملامح ذلك الطفل ذي العشر سنوات الذي كنت أحمله بين يديّ، معتقداً أنه سيكون دائما معي، وبالتالي، ومن خلال التجاعيد والدموع، كنت أحاول أن أعيد ذلك الزمن الذي مضى، ولكن بشوق وقداسة أكبر.

في عزلتي داخل بيتي الصغير، أستمع إلى خماسية روبرت شومان من خلال الآلة الوترية والبيانو الذي كنت أحبه كثيراً. كيف ستدرك بأنّ ذلك الموسيقي العزيز والكئيب والبائس فقد صوابه وألقى بنفسه في نهر الراين.

يُشرق وجهك عندما تتحدث عنه، وعن عائلته وعن تاريخه، ذلك التاريخ الذي يعيدك دائماً إلى التشوق لمعرفته أو يساعدك على العيش. ما أعجبك في شومان عبقريته الموسيقية التي تفيض بالقصائد الشعرية والرقة وتولّد فيك مشاعر الحب تجاه كلارا، تلك المرأة التي رافقته، وتمسكت به وحمته، وبموته، كانت هي أكثر من ساعد على نشر عمله، لترسخ قيمته وموهبته في جميع أنحاء العالم.

يتبادر في ذهني الأمسيات التي أمضيتها مع ماريو ومعك ونحن نتحدث عن مواضيع كثيرة لا حصر لها، لننتهي بمحادثاتنا بالحديث عن الموسيقى، واتفقنا بأن برهام كان واحداً من العظماء، وبالطبع بيتهوفن وباخ، بالإضافة إلى شوبير العظيم والرائع، الذي لم أسمع مطلقاً خماسيته الأخيرة.

يا إلهي أين أنت؟ إذا كنت في نفوسهم، فأي حزن! وأي كآبة!

أنظر إليك عزيزي خورخي، وأنت تجلس على الكرسي أمام البيانو لتعزف مع ماتيلد تلك الأعمال المؤثرة التي تساعدنا على تحمل الحالة الإنسانية.

منذ صغرك وأنت شغوف بالموسيقى، فقد اقترحت علينا مارتينيث إيسترادا أن نجعلك تدرس مع أحد تلاميذ سكاراموزا، وكانت قد اندهشت لامتلاكك أذناً موسيقية مطلقة. في واحدة من حفلات العزف التي تقام نهاية العام، قال

دوربانو أحد نقاد الموسيقى الكبار: «يوجد شابان اثنان تعهدا بأن يكونا من رواد هذا الحفل، واحد منهما هو ابن ساباتو، والآخر شابة اسمها مارتا أغريتش». ومع ذلك، أبعدتك عن الموسيقى عندما أكد لي إبيستين بأنك ستصل بعيداً كمنجز أو منفذ، إلا أنك لن تكون ملحناً. لقد فعلت ذلك لأنني اعتبرت أنه كان مصيراً صعباً أنْ تعيش صاعداً ونازلاً من الطائرات، وفي غرف غير لائقة في الفنادق، بلا مأوى، وبدون عائلة، وبدون هذه الأشياء اليومية الصغيرة، التي ربما تكون متواضعة، إلا أنها تساعدنا على العيش. الشيء الذي لن تعاتبني عليه مطلقاً، على الرغم من شغفك الحقيقي بالموسيقى، والتي تمارسها يومياً في وقت متأخر، عندما تعود مرهقاً من عملك، كمن يعود إلى حب سري وحقيقي.

أثني عليك عزيزي خورخي، بطريقتك بالوجود، بتواضعك في اللحظات المثيرة؛ لأنك مع عبقريتك لن يهمك أبداً استخدام الآخرين لأعمالك البحثية ولأفكارك. ينبغي عليك أن تفتخر بــ ليديا، زوجتك التي رغم الألم تواصل الصراع، وبناتك اللواتي ورثن منك المواهب والصدق. دانتي وأني بجانبها.

لم أعانِ من الحزن على الإطلاق، فقد توفي أحد أعظم من عرفت في حياتي، كريم في التعرف على عبقرية الآخرين، بأولئك ممن أعجبت بهم، من شومان وبرهامس وبيتهوفن ومالرو وتوماس مورو وسانت اكسوبيري، كان خورخي يحترم الكائن البشري، يحب الفقراء والضعفاء من أولئك الذين يعملون طيلة حياتهم. من منصبه كوزير، سافر، دون أن يستريح، إلى جميع أنحاء العالم لزيارة المدارس في الأماكن النائية جداً.

في مساء يوم ما من عام ١٩٩٨م، واصلت استماع الموسيقى التي يحبها خورخي، أنتظر بأمل لا حدود له لحظة إعادة اكتشافانا لذلك العالم الآخر، ذلك العالم الذي ربما يكون موجوداً هناك.

خرجت لأتجول في شوارع بوينس آيرس، ومنقاداً بالفأل المظلم، وصلت حتى المسارات القديمة لحديقة ليثاما. تطغى عليّ الذكريات، لتوقفني أمام تمثال ثيسريس، حيث التقى مارتين قبل أربعين عاماً بأليخندرا. عندما فقدنا الشعور بأي شيء عشناه، نعود إلى الأماكن التي نشأت فيها الأسئلة المحزنة القريبة من الوجود.

وهكذا، كنت آتي في كثير من الأحيان حتى أصل هذه الساحة، وأجلس على المقاعد الموجودة فيها، مثل البارحة. وبقيت خلال ساعات أتأمل في الناس الذين يعيشون بلا مأوى ويزدادون في بوينس آيرس، كما حدث في كل المدن الكبيرة. هؤلاء المنبوذين الذي يعيشون في وسط محيط العاصفة، يلقون

بزجاجاتهم في البحر. وفي يوم ما، كان هناك مَنْ جمع هذه المقتطفات غير المقروءة، دون معرفة إلى مَن تُنْسب، ربما تتحدث عن الحب أو عن البلاء. لكن البارحة مساء أخمدتني الكآبة، وكان ينبغي على إلبيرا أن تحضرني، وذلك حتى تسير بي وتدفعني؛ لأكون قادراً على المشي ولو قليلاً، فهذه هي محنتي.

أريد اليوم أن أتحدث عن إلبيرا غونثاليث فراكا ومكانتها في حياتي، أفعل ذلك كرمز للامتنان على كل شيء قدمته لي هذه السيدة.

فخلال أكثر من ثمانية عشر عاماً، ساعدتني في مهامي بمهارة كبيرة وحساسية عالية. آمل دائماً أن توافق على نشر ما أكتبه.

ومن الناحية العاطفية، أفكر في الحب الذي وضعته، في رعاية ترجمات أعمالي، وفي معارض لوحاتي، وفي الندوات والمؤتمرات، والمماطلة في الإمكانيات الخاصة بي، كما أنها رافقت ماتيلد، وهي التي نظمت قصائدها وكتاباتها، وأحضرتهم معها إلى المطبعة اليدوية في الجنوب.

منذ أن مرضت ماتيلد، كانت بالنسبة لي هي الشخص الذي صرفته عن اشمئزازي ويأسي. في هذا الوقت من الألم، بدون تأييد وإيمان بـــإلبيريتا، كنت سأموت، والآن، عندما لا أعرف فعلياً إذا كنت سأكون في حالات من السفر لأحضر إلى ذاكرتي الصباح الذي رافقتني فيه إلى باريس إلى كنيسة القديس خوليان لو بافور، الكنيسة الصغيرة والرائعة، حيث حضرنا طقوساً أرثوذكسية. كانت لحظة مهمة من حياتنا.

خلال شهور بعد ذلك، ذهبت معها إلى القداس للاحتفال بـــ هوغو موخيكا، ذلك الرجل الذي يتمتع بقدر كبير من الإيمان كموهوب، وكان ذلك عندما تواصلت معه في المرة الأولى. إلبيريتا هي من الأشخاص المحبوبين جداً في هذه الحياة.

في الساحة، أمام المحطة، بقيت أنظر إلى طفل يلعب هناك، تعجبت، مرة أخرى، كيف كان الوقت في مرحلة الطفولة يمضي ببطء، كما لو أنني مازلت أعيشها. هي اللانهائية التي تمتد بين «عيد الملوك» الذي مضى والذي سيأتي وبين أعياد ميلاد الأطفال التي تحدث بعد أفعال كثيرة أو أحلام، بحيث يبدو أن الحدث القادم بعيد جداً، كما الشيخوخة.

هذا البطء يجعل الطفولة الحدث الأكثر خصوبة والأكثر ضعفاً، فالأطفال يتقاسمون سكينة الأشجار وإنبات الأرض. يعيشون الزمن الذي لا ينتهي: كم بقي لمجيء أعياد الميلاد بالنسبة لهم؟، كم بقي لعيد ميلادي بالنسبة لي؟؛ بالنسبة لهم فإن الماضي غير موجود والمستقبل شيء غيبي. وبالتالي كل يوم هو اليوم الخالد والأبدي. توقفت في كثير من المرات، فقط في بيتي الصغير

أو مع أصدقائي أفكر في هذا الموضوع، حول الاختلاف بين الزمن الوجودي والزمن الكورونولوجي: هذا شيء واحد بالنسبة للجميع؛ فهناك، ما يلامس شخصية كل إنسان.

مثلما تكون ساعات الطفولة بطيئة، فإنَّ ساعات مَنْ يكبر في السن، تبدأ بالتقلص، مثل نجم يتحول أكثر فأكثر في مدارات أصغر، ويكون ذا سرعة أكبر، حتى إن هدايا عيد الميلاد لن يَستمتع بها عندما تأتي، بل يكتفي فقط بتربص الذكرى الجديدة.

مع مرور الزمن، تزداد قيمة الماضي، ويبدو أن خطورة الوجود تنجرف تجاه ذلك الجانب. فعندما يتخلى المرء فعلياً عن طاقة العمل، وعن الحماسة العاطفية، وعن وهم المشاريع الأخرى، غالباً ما يسكن الحاضر بذهول، مثل لعبة غير مثيرة للاهتمام، لأن الأنا الأكثر عمقاً بقيت راسخة في هذه اللحظات، عندما تكون الحياة فيها متوهجة.

لكن، كم مرة شعرت فيها أن الحياة تتجدد مثل حياة النسر!، وكم مرة أعطاني الإبداع وهج الخلود!

عدتُ إلى قراءة سان أوغسطين، وتذكرت التقارب والاختلاف. يطرح -أعتقد أنها المرة الأولى في تاريخ الفلسفة الغربية- هذه الفكرة الوجودية للزمن الذي أثارني كثيراً، وبدلاً من ذلك، فإنني لم أتوقف عند تقييمه للخلود.

في الخلود لا يحدث شيء، بل كل شيء موجود، يأتي الماضي مدفوعاً بالمستقبل، ويأتي المستقبل بعد الماضي، مَن يوقف قلب الإنسان لرؤيته يتوقف، ويرى كيف يجري الخلود ساكناً، ويحكم أزمنة المستقبل والماضي، فالخلود بلا مستقبل وبلا ماضٍ؟

قبل تلك الفترات، كان قلق الإبداع والخلق يدفعني دائماً إلى أبعد من ذلك، ويبدو لي أنَّ الوجود والزمن غير منفصلين، وأنا أتقدم تجاه المستقبل كما أتقدم تجاه هدفي. بعد ذلك، مضى الوقت مسرعاً، لأشعر بأنه ينبغي عليّ أن أستقيل وأتخلى عن الكثير من المشاريع.

عندما مات خورخي فيدريكو، فإن مفهوم الزمن لم يكن صالحاً، إذْ لم يكن مصاباً، فعلياً، بالدوار بسبب ماضيه ولا يشعر بالتّعب من أجله، بل بقي كلّ شيء متوقفاً في فراغ تتقطع فيه القلوب.

لعدم تمكني من إعادة الحياة إلى خورخي، بحثت في الأديان، فيما يفوق الحس والشعور، في الثرثرة الباطنية، لكنني لم أبحث عن الله كإقرار بوجوده أم لا، وإنما كشخص ما أنقذني، وحملني بين يديه كطفل يعاني. ذلك الذي كنت

قد قرأته بحكم نقدي، أستوعبه الآن كمتعطش لمعرفة كل شيء.

عدت إلى كارل ياسبرز، إلى بضع صفحات ورد فيها اقتباس للفيلسوف الروماني إبيكتيتوس Epicteto يقول فيها: «أصل الفلسفة هو إدراك للضعف وللعجز نفسه».

كم مرة غرقت في الأحزان القاسية، تلك الأكثر بؤساً وحزناً، فكان العمل الإبداعي خلاصي ومحصّني، فقد كنت مقتنعاً بـما قاله بابيسي: إنّ المعاناة تعلمنا كيمياء العصور الوسطى التي تحوّل الذهب إلى طين، إنه البؤس بامتياز. لكن فقدان خورخي يتعذر إصلاحه، أعلم أنه لا يوجد أي عمل يولد بين يديّ يمكن أن يبث السكينة فيّ، ليبدو لي أنه يحاول تشتيت انتباهي أو حتى رسم أو كتابة شيء ما.

تذكرت مرتعشاً واحدة من النذر الخطيرة التي تملكتني في الحياة. بعد عدة سنوات من وفاته، كنت قد شرعت بكتابة حكاية عن رجل كبير في السن، حرفي من القرية، واحد من أولئك الرجال الذين يمتلكون قلباً نقيّاً ويؤمنون بالحياة. لعل ذلك الرجل سيكون الوحيد في العائلة الذي له حفيدة أحبها كثيراً وروى لها الكثير من الحكايات الرائعة. كانت نيّتي أن أضعه في حالة محددة: إذ فقد صغيرته، بسبب حنانه الكبير، فهل سيواصل إيمانه بالحياة؟ وأنا لا أعرف ما هي ردة فعل ذلك الجد، كنت آمل أن يرشدني حدسي إلى شيء، إلا أنني كنت منغمساً جداً في الرسم لدرجة أنني لن أستطيع كتابة حكايته.

أشعر الآن تماماً بأن حد الحياة والألم يوقفان الزمن في احتدام أبدي.

عرفت أن ياسبرز قال بأنه «يوجد في حالات محددة قوة دفع رئيسية تتحرك لتجد في الفشل الطريق التي تؤدي إلى الوجود»، وقال أيضاً «إنَّ الطريقة التي تختبر بها الفشل هي التي تحدد أين سينتهي الإنسان».

لا أعرف، إذ كنت أستطيع أن أقول إن الزمن في حياتي قد انكسر، وإنني بعد موت خورخي لم أعد أنا نفسي، أصبحت كائناً محتاجاً إلى كل شيء، إنني لا أتوقف عن البحث عن أي إشارة تدلل على ذلك الخلود، حيث أستعيد من خلاله حضنه.

قدّمنا في شهر يوليو «رومانسية الموت لخوان لبالي»، في مسرح ثربانتس بمشاركة ميرثيدس سوسا، التي لم تكن مهتمة بكل ذلك. كان ذلك بالنسبة لنا بمثابة التكريم الذي يسمح لنا باستعادة مشاعر ما قبل ثلاثين عاماً، عندما منحت صوتها للمرة الأولى إلى الألم البائس لـ داماسيتا بويدو.

منذ حوالي عام أخذنا هذه المغنية إلى المدن الفقيرة والقديمة داخل

الدولة، مثل مدينة سالتا وكورينتيس، بالإضافة إلى جوجي مدينة البطولة والجمال. هذه المدن ذكرتنا بالوقائع التاريخية ومنحتنا جمال الأرض. في أوشوايا بقيت مخبولاً؛ بسبب جبال نهاية العالم الغامضة، وبسبب ذئاب البحارة وحيتان ميناء مادرين.

أعلم أنّ فكرتي للقيام بــ «الرومانسية» لم تكن ممكنة لو لم تكن مروية من خلال الملحن الكبير الموهوب إدواردو فالو، صاحب الصوت الاستثنائي.

في مدينة ريسيستينثيا كان لدي خبرة بدت، بالنسبة لي، حاسمة. كان ذلك في بداية العام، خلال الفيضان العظيم لــ بارانا. ولذلك، أثّر فيّ كثيراً رؤية الفقر، كما أثّر فيّ، في الوقت نفسه، رؤية الكثير من الإنسانية أيضاً. كما لو أنهما عنصران غير منفصلين، وكما لو أنهما من أساسيات الكشف عن الإنسان وعيوبه.

تقدمت التيارات مثل فيضانات الأنهر الجبلية العظيمة، التي دمرت بيوتهم، وخربت محاصيلهم. يمكن لــ بارانا في أي لحظة أن تخرب وتهدم الينابيع وأن تبقي المدينة والقرى المجاورة مدفونة.

تمّ إجلاء الكثير من العائلات، وفي هذا الجو الخطر، في وسط الأمطار الهاطلة، كان من المثير للتأمل أن أرى كيف يساعدون بعضهم الآخر، كم من الإنسانية التي رأيناها تزدهر في هذا الخطر!

كان ذلك بيّناً بالنسبة إلى إدوارد وبالنسبة لي أنا أيضاً، فقررنا التعاون للعمل الذي سيتطور في قرية مأهولة في منطقة غير معروفة.

إن التدين الذي يعيشون عليه أبناء هذه القرى الداخلية مثير للإعجاب؛ ففي إحدى طرق التعامل مع الفقر وجدتُّ بقايا حياة أكثر شاعرية، إنهم أولئك الذين عرضوا علينا بحياء القيم التي نشعر بها هنا دون عمل ودون زمن.

مضينا معاً إلى باب الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد، بعد معاناة طويلة وقاسية مع المرض الذي أبقاها طريحة الفراش عدة سنوات. في هذه الأوقات عندما تغلب عليها «الشر»، تلّقت رعاية محببة من الممرضات ومن غلاديس، المؤمن غلاديس، الذي يعاني معي الآن هذا الألم. كانت رعايتهن لها كمخلوق عاجز. كم إن عظمة المرأة أكثر من الرجل! حصلت ماتيلد على اهتمام من أطباء مشهورين، بالإضافة إلى مساعدة صديقتنا ستيا سولدي لها، التي كان لديها خبرة مؤسسة للتعامل مع هذا المرض.

اعتدت على الاتكاء بجانب بابها، واضعاً أذني منصتاً، وبقيت هكذا مستمعاً. تحدثت معها الممرضة كما لو أنها تفهمها، حتى أنها كانت تقصّ عليها بصوت

يكاد يكون مسموعاً، من مسافة لا يمكن حتى فك شيفرات كلماتها. في إحدى المرات، حدثتني ماتيلد أنها لم تنم طيلة الليل. حدثتني عن عصفور ذي لونيين أسود وأزرق، كبير وجميل، وأنه كان يقترب منها ليقول لها إن لحظة وفاتها قريبة. كان حلماً مزعجاً جداً، إلاّ أنّه هو الذي منحها نوعاً من السلام.

حتى عادت الممرضة، وذهبت أنا لأنغلق على نفسي داخل بيتي الصغير. جلستُ لمدة طويلة جداً، مثل كل مرة، أنظر إلى الحديقة، دون معرفة ما أفعله، ودون الحصول على أي شيء، أفكر في الأشياء الغامضة وغير المحددة.

كم هو محزن! كيف سأبقى في هذا البيت المظلم، الذي كان في زمن ما مليء بصراخ الصغار، وبأعياد ميلاد الأطفال، وبقصص ماتيلد التي كانت تخترعها في الليل لتنيم أحفادها. كم هو بعيد، يا إلهي، في ذلك المساء عندما جاؤوا بها ليتحدث معها أصدقاؤها، عندما زارتها خوليا كونستينلا أو آنا ماريا نوبيك.

فكرت بحزن كبير في كل ذلك الذي ينبغي عليها أن تتحمله بسببي. أتذكر المساء الذي تركتها فيه عندما كنا في باريس؛ لأذهب مع المرأة التي كانت زوجة الكونت في السنوات التي سبقت الثورة الروسية، قدمت لي أميراً كان يعمل حينها كسائق تكسي، وتحدثنا معه عن تشيخوف ودوستويفسكي وتولستوي. الاضطراب الذي عشته خلال زمن السريالية كان قد فرض عليّ في النهاية التخلي عن ماتيلد في الميناء وفي حضنها خورخي، مرتكباً بذلك عملاً مفزعاً، التصرّف الذي لم يتوقف أبداً عن تعذيبي. لذلك عندما أكون في الشارع، أو في القطار، ويلقي عليّ بعضهم السلام، أو حتى أنَّ بعض النسوة والعجائز المتدينات يقلن لي: «إنّ الله سيمد من عمرك لسنوات عديدة قادمة»، سألت نفسي إن كنت أستحق ذلك أم لا. كانت الكثير من هجراتي إلى تلك النساء اللواتي يمنحنني روحهن وحياتهن من أجلي؛ لأتجنب على وجه التحديد إحباطاتي التي قد تدفعني إلى إحراق كل ما كتبته. كانت ماتيلد قارئتي الأولى، وكانت قراءتها هي الأشد دائماً، ولكنها الأكثر لطفاً كذلك، بالإضافة إلى أن ملاحظاتها كانت دقيقة. كانت ماتيلد تضع بعض العلامات بقلم رصاص أسود خفيف على جانب الصفحات، وكانت ملاحظتها على صواب دائماً.

لم تجعلها شجاعتها تتراخى مطلقاً، ممسكة بي على الرغم من كل الصعوبات التي كانت تواجهها، لكن، في المقابل، كانت تربطني علاقة عميقة بامرأتين، كنّ يعتنين بي كثيراً ويكرمن عليّ كرماً لا حدود له؛ لأنني كنت دائماً بحاجة إلى تأييد ودعم مثل بيت قديم أو مبنى مترهل.

في سنواتها الأخيرة، عندما رأيتها كئيبة بسبب مرضها، عندما أردتها أكثر عمقاً، لاسيما وأنا أفكر في القيمة التي عانت منها في حياتي المعقدة والعشوائية والمتناقضة. أمضيت وأنا بجانبها لحظات من الخطر، من الحب، من المرارة، من الفقر، من الإحباطات السياسية والمسافات المحزنة، حيث كنت أنتظر دائماً القارب الذي يهتز بسبب العواصف التي تهدأ بعد ذلك، لأعود إلى رؤية السماء مرصَّعة بالنجوم، وأشاهد «الصليب الجنوبي» الذي أشار من جديد إلى مساره، وهي اللحظات نفسها التي كنا نتأمل فيها عندما كنا صغاراً، عندما كنا نجلس على مقعد الساحة، وقبل ذلك بسنوات كثيرة، تذكرت الغموض الأكبر عندما كنت أردد مع نفسي بعض أبيات مانريكي: كيف تمضي الحياة

كيف يأتي الموت

بهدوء جداً...

هذا المساء، وبينما كنت ألعب مع ياسمين، طفلة إيريكا الصغيرة، وصلت لوثيانا مع طفلها -حفيدنا إغناثيو- البالغ من العمر ثلاثة شهور، تذكرت حينها عندما كان خوان سبستيان طفلاً صغيراً وهي تقوم بالاعتناء به، فهي دائماً أُمّ صغيرة.

بعد ذلك جاء ماريو ليبحث عني ويأخذني معه لأستمع إلى الجوقة التي قام بتشكيلها، لديه شعور عميق وكبير بالموسيقى، وبالتالي فهو بلا شك مبدع كبير.

خلال هذا الوقت، أصبحت متحمساً لفكرة الانفتاح على هذا المكان، حيث كُنّا نعيش، إلى الناس الذين أظهروا لي تفانيهم وحبهم، إلى مَن قرأوا لي وشجعوني. أشعر أنني بطريقة ما، أنتمي إليهم، فما يرضيني هو أنني عندما لا أكون موجوداً في هذا البيت، أوكل غلاديس برعايته، وأوصيه بإبقاء الأبواب مفتوحة. وهذا ما طلبته أيضاً من غارثيلا مولينيا التي فعلت ما تسطيعه لتنفذ أمنيتي، وآمل أن تعتني بهم جميعاً، العائلتين، وبصديقيّ الكبيرين اللذين كانا دائماً يرافقانني. .

هذا هو البيت الذي عشنا فيه مع ماتيلد منذ ما يقرب الستين عاماً، حيث قُضِيَت فيه طفولة أطفالنا، وحيث صوّر فيه ماريو أفلامه الشعرية، حيث أتيت للعيش مع إلينا، وفيه ولد أحفادنا لوثيانا ومرثيدس وجويدو. وهنا مضى زمن فقرنا، كما أنه المكان الذي نشأت فيه الأحداث الرئيسية لحياتنا.

فَصَلْتُ اللوحات التي أريد أن أبقيها كتراث للبيت، بالإضافة إلى الطبعات الأولى من أعمالي، رفقة كتب ماتيلد وقصائدها وقصصها غير المنشورة. أريد أن يكون كل شيء في هذا البيت كما هو، بأجزائه المكسرة، وبجدرانه المتشققة. مثل الإناء القديم الذي كان لعائلة ماتيلد الروسية، بالإضافة إلى مجموعة من مجلة «سور»، التي كانت مثل مأوى لبداياتي الأولى في الأدب.

هذا البيت ولد فيه عملي وفيه ماتت ماتيلد، مع شجر الأرراوكاريا القديمة، وشجرة التوت وشجر الصنوبر المئوي.

تلقيت كميات من الرسائل من بعض الشباب الصغار الذين يشعرون بأنفسهم بأنهم على حافة الهاوية، ليس فقط من شباب بلدنا، بل من العالم كله. مثل ذلك الذي فعله مراهق يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، الذي كان يقرأ رواياتي ويكتب لي من إحدى المدن الفرنسية، حدثني عن ريمباود في رسالة كتبها بخط يده، مُشيراً إلى حالة اليأس والاضطراب التي كان يعيشها، حتى أنه هبّط قلبي؛ لأنني شعرت بأنه ذاهب إلى الانتحار، فهذا الفعل المأسوي أصبح عالمياً. يحدثني هؤلاء الشباب عن أحزانهم، وعن رغباتهم في الموت، كما أنهم

أخبروني كيف يتمسكون بمارتين وهورتينسيا باث[16] ؛ على اعتبار أنهم يساعدونهم على تحمل ومصارعة هذه الحياة المتوحشة والقاسية.

(16) أسماء بعض الشخصيات الروائية، التي وردت في بعض أعمال إرنستو ساباتو. (المترجم)

لطالما كنت قلقاً على هؤلاء الشباب، الذين يوجهون أنظارهم إلى الجمال، لكن ذلك مشكلة؛ هل لأن حظهم أقل من حظ متعطش يبحث عن المطلق؟

في شبابي، امتلكت فرصاً كثيرة للانتحار، لكن انتهى بي الأمر بإنقاذ نفسي من خلال إدراك معاناة كل أولئك الذين سيحزنون بسبب موتي. فدائماً هناك أناس لا يمكن أن يعوض غيابنا عنهم شيء: الأم والأب والأخ؛ أو أي مخلوق مهما كان بعيداً، صديق عزيز، أو حتى كلب يكفي.

ديغو كوراتيا، الذي عمل معي في السنوات الأخيرة، ذكرني بما قاله كامو: «هناك مشكلة فلسفية واحدة وخطيرة: هي الانتحار. فالحكم على أن الحياة تستحق العيش أم لا هو الجواب على السؤال الأساسي للفلسفة». وفي بعض الأحيان عندما أفكر في الحياة، وفي هذه النهاية الغامضة، وعندما لم يعد لديّ القوة لمواصلة الكتابة، وعندما يبدو لي كل شيء سخيفاً ولا فائدة منه، وهذا الكتاب، خصوصاً هذا الكتاب، ما هو مستوى التشجيع الذي يمكن أن يمنحه لأولئك البائسين الذين طلبوا مني العون؟ ديغو قرأ عليّ الأفكار المهمة أو ذكرني بمقاطع شعرية كنت قد نسيتها، فبمعلوماته الفلسفية، أقنعني بأنه ينبغي عليّ أن أختم هذا الكتاب؛ بسبب الشباب الذين يعيشون في خضم البؤس، والذين هم بحاجة اليوم إلى الكلمات التي يكتبها كتّابهم المفضلون. ذكرني ديغو بأن برونو قال في إحدى رواياتي: «أي حكاية عن الآمال وحالات البؤس التي يعيشها إنسان ما، أو شاب صغير غير معروف، يمكن أن تشمل الإنسانية كلها. الكتابة عن مراهقين محددين، عن المخلوقات التي تعاني أكثر في هذا العالم الذي لا يرحم، عن المستحقين لشيء يصف مرة واحدة مأساتهم وشعورهم بالمعاناة».

وبالتالي سأستمر في هذه الشهادة أو الخاتمة أو الوصية الروحية، بالطريقة التي يريدون تسميتها، لتكرس إلى أولئك الشبان الصغار والفتيات المشوشين، الذين يقتربون في بعض الأحيان خجولين، وفي حالات أخرى يكونون كمن يبحثون عن لوح خشبي في البحر بعد حدوث كارثة ما؛ لأنني أعتقد أنهم هم فقط مَن يستطيعون أن يقدموا قطعاً غير ثابتة من الخشب.

توقفت لألتقط صورة لطفل صغير يمسح الأحذية في مدينة سالتا، اقترب ليعانقني بعاطفة كبيرة. مضى وقت طويل وأنا أنظر إليه، مثل واحد من تلك الأيقونات التي أخبرونا عنها عن إله بعيد ولكنه مختفٍ في مكان ما. في لمعة

عينيه يبدو أن هناك شيئاً رفعه إلى أعلى بعيداً عن هذا العالم المرعب والبائس. هذا الطفل الصغير، بتواضع ماسح أحذية أظهر لي الإله، ذلك الإله الذي آمنت به، إلا أنني لم أستطع أن أحافظ عليه، لأنني اعتبرت نفسي روحاً دينية، ولكن في الوقت نفسه مليئة بالتناقضات، مع لحظات أميل فيها إلى الاعتقاد بأفعال خارقة، وفي أوقات يمكن أن تقع فريسة للتشاؤم والكآبة. ربما لأن المرء يتوقع الكثير، وغالباً ما يُصاب بخيبة أمل، وخاصة في الأوقات التي تجرّدنا فيها الحياة من أولئك الذين كانوا بالنسبة لنا، مثلما قال سيرنودا: «وقفة من الحب بين تسرب الأشياء». كيف تحافظ على الإيمان، وكيف لا تشك، عندما يموت طفل من الجوع، أو في خضم آلام كبيرة من سرطان الدم، أو التهاب السحايا، أو عندما يقوم رجل متقاعد بشنق نفسه؛ لأنه يعيش وحيداً، عاجزاً، جائعاً وبدون أحد، كما يحدث الآن، أين الإله؟ ما هي الإجابة التي تعدها لولدك، عندما صرخ بتلك العبارة التراجيدية؟ أليست المانوية شرعية في هذه الحالات؟، وبالتالي، يمكن تفسير كل شيء، على الأقل للبشر العاديين، وليس إلى اللاهوتيين الذين يكتبون آلاف الصفحات لتبرير غيابك. كما يقول دوستويفسكي، يتنافس الإله والشيطان على روح الإنسان، وساحة المعركة هي قلب تلك الكآبة. وإذا كان القتال لا نهاية له، وإذا كان الله ليس قوياً ليتغلب على خصمه، وإذا، كما قال الكثيرون، هزم الشيطان وقام بتكبيله بالسلاسل، ليجعله أكثر مهانة، فإنه يهيمن بالفعل على العالم وسيصرح بأن مَن يؤمن بالله سيشوه سمعته، يا له من رعب! ما معنى الحياة بعد ذلك كله؟

هناك الكثير من المشككين في وجود الله، الذي رغم ذلك، سمح بمعاناة الكثير من الأبرياء. واحدة من هؤلاء المشككين هي القديسة تيريسا دي ليزيو التي كانت شكوكها حتى اللحظات الأخيرة من موتها؛ ففي خضم صراعها وألمها مع المرض سمعها بناتها وهي تقول: «حتى الروح جاءتني مدنسة». يقول بون بلاثاسار بينما كان هناك من يعاني في الأرض، فإن الفكرة الوحيدة لعمار السماء إنتاج شيء مثير مشابه لذلك الذي قام به إيفان كارمازوف[(17)]، على الرغم من أنه مات بعد ذلك على إيمان بريء ومطلق، مثل دوستويفسكي وكيركغور وريمباود المتلبس بالشيطان، الذي تضرع وهو على سريره إلى الأخت التي زودتهم بالأسرار الخفية.

(17) إحدى الشخصيات المحورية في رواية «الإخوة كارامازوف» لـ دوستويفسكي، وإيفان هو ابن الأب فيودور، وكان يمثل شخصية الكاتب والشاعر الشاب، الذي يعيش حياة نفسية مضطربة؛ بسبب معاناته مع القدر، ما جعله يطرح تساؤلات عن ماهية الحياة والوجود الإلهي والبحث عن مفهوم القدر. (المترجم)

ووفقاً للفيلسوفة الفرنسية سيمون فايل، فإنّ هذا النوع من التصوف التكفيري يرى أن «المعاناة هي تفوق الإنسان على الله، وبالتالي، هي الحاجة

إلى «التجسيد» حتى لا يكون ذلك التفوق فضيحة». لذلك، عندما أتخلى عن تلك الأسباب التي كانت تنتهي دائماً بتشتيتي وإرباكي، كانت صورة المسيح تريحني وتزيد من طمأنينتي، المسيح الذي هو الآخر عانى فقدان الأب. وكذلك ماتشادو قال بإنه بحث عن الإله بين الضباب. في بحثي الخاص الذي قمت به، وجدت في بعض المقاطع الواردة في «اعترافات القديس أوغسطين»، باباً مفتوحاً، تاركاً لنا انعكاس ضوء ما. عند التفكير في تمثال «ماريا المجدلية» الذي قام به النحات الإيطالي دوناتيلو، التمثال الأكثر مأسوية وتعبيرية، أسأل نفسي إن كان الإيمان يستطيع الوصول دون تلك المعاناة الفظيعة، التي قد تبدو مبهمة وغير مفهومة.

ألم يكن الألم الكبير هو الذي أنجب أوسكار وايلد الذي نفضله؟ في تلك الرسالة الأخيرة المؤثرة، يتذكر عندما تم نقله من السجن إلى المحاكم، وسط حشد، بينما يتقدم هو مكبل اليدين أمام الحرس الذين يحيطونه، عندما رفع رأسه ورأى كيف قام أحد أصدقائه بتحيته بخلع القبعة. وأمام هذه الشكليّات الخطيرة لتلك الإيماءة، فقد كان الجمهور الصاخب قليلاً وصامتاً. كتب في رسالته: «حينما يكون هناك ألم، توجد أرض مقدسة». لقد أبعده ذلك التعبير إلى الأبد عن إسرافه القديم، ولن يتردد أبداً على صالات الاحتفال المتنوعة. إن معظم النبلاء من الرجال هم أولئك الذين نهضوا بأعمالهم من وسط الدمار، متمسكين، بلا كلل، في منتصف الطريق بين التمزّق والجمال.

الخاتمة

ميثاق بين المقهورين

فشلنا
على ضفاف رمال العقلانية
خطونا خطوة إلى الخلف وعدنا إلى لمسها من جديد
إنها الصخرة المفاجئة للغموض

أورس فون بلاثاسار

أتحدث إليكم، ومن خلالكم إلى المراهقين الشباب الذين يكتبون إليّ أو يوقفونني في الشارع، وإلى أولئك الذين ينظرون إليّ من تحت الطاولات في بعض المقاهي، الذين حاولوا الاقتراب مني ولم يجرؤوا.

لا أريد أن أميت نفسي دون أن أقول لهم هذه الكلمات.

عندي إيمان بهم، كتبت لهم، خلال وقت طويل الأعمال الصعبة جداً، وأنا لا أعرف إذا كانوا سيعودون إلى التحدث عمّا يمرّ به العالم. يكمن الخطر في أن نجد أنفسنا كلنا قد وقعنا فيه، أغنياء وفقراء.

هذا هو الشيء الذي لا يعرفونه، يا رجال السلطة، إنهم لا يعرفون أن أبناءهم أيضاً في هذا الوضع السيئ.

لا نستطيع أن نغرق أنفسنا في الاكتئاب؛ لأن ذلك بطريقة أو بأخرى، ترف لا يستطيع آباء هؤلاء الصغار الذين يتضورون جوعاً أن يتحملوه. ولا يمكننا أن نحبس أنفسنا كل مرة بمزيد من الاحتراس والأمان داخل بيوتنا.

علينا أن ننفتح على العالم، ولا نعتبر أن البؤس والشقاء في الخارج، بل إن ذلك مثل إضرام نار في غرفة الطعام داخل منازلنا، فالحياة وأرضنا اللتان نعيش فيهما في خطر.

أكتب لهم بعض أبيات من الشعر لـــ هولديرلين: نار الآلهة نفسها تدفعنا ليلاً ونهاراً إلى الأمام. تعالوا! ننظر إلى المساحات المفتوحة، نبحث عن ذلك الذي ننتمي إليه، مهما كان بعيداً.

نعم أيها الشبان، ينبغي علينا أن نأخذ حياة هذا العالم كواجب، علينا أن نخرج للدفاع عنها، فهذه هي رسالتنا.

لم أكن أتوقع أن الحكومات تذهب إلى السيطرة.

الحكومات تنسى، ويمكن لأي إنسان في هذا العالم أن يقول إن الهدف من هذه الحكومات هو الارتقاء بالصالح العام.

بعد ذلك، يكتسب التضامن مكانة حاسمة في هذا العالم الذي يرأسه أحد ما، والذي يستثني بدوره المختلفين. عندما نتحمل مسؤوليات الألم عن الآخرين، فإن اتفاقنا سيمنحننا المعنى الذي سيضعنا فوق نكبة التاريخ.

لكن قبل كل شيء علينا أن نتقبّل بأننا فشلنا. فخلاف ذلك سنعود إلى أن نكون مجرورين من خلال رُسل التلفزيون، من خلال أولئك الذين يبحثون عن الخلاص في عقار التنمية، فالاستهلاك ليس بديلاً عن الجنة.

الوضع خطير جداً ويؤثر علينا جميعنا. لكن رغم ذلك، لا يزال هناك مَن يسعى جاهداً لعدم خيانة القيم النبيلة. ملايين من البشر يتحملون العيش في واقعهم البائس بشكل بطولي، إنهم هم الشهداء.

يُنظر إليهم وهم ينزلون من القطارات، ومن الحافلات، بعد ساعات غير إنسانية من العمل، أو عندما يصلون إلى مرحلة البؤس في حال لم يواصلوا عملهم. يُنظر إلى النساء اللواتي ينفقن ثلاثين عاماً من أعمارهن من أجل أولادهن، ويخرجن على عجل إلى عملهن من أجل أن يُدْفَع لهنّ في النهاية مبلغاً لا قيمة له. يُنظر إلى الأطفال في الشوارع، إلى العجائز الذين ينامون بجانب محطات الميترو، إلى كل إنسان يهاجر في المعاناة والحاجة.

سألوا الكاتب الإيطالي بازوليني مرة، لماذا يهتم بحياة المنبوذين، كبطل فيلم «ماما روما»، فأجاب بأنه يفعل ذلك لأن الحياة فيهم تبقى مقدسة بتعاستها وبؤسها.

في الأرشيف الذي يضم مجموعة من الأوراق، توجد القصاصات التي ساعدتني على العيش، معي صورة للزلزال الذي دمّر Concepción de Chile قبل سنوات: هندية فقيرة، أعادت بناء بيتها المدمر في مزرعة صغيرة، مستخدمة الصفيح والكرتون، تمسح بمكنسة قديمة ذلك الجزء من الأرض الذي يشبه الساحة الأمامية لذلك الكوخ المترهل. وقد يطرح أحد على نفسه أسئلة لاهوتية! كم أن صورة هذه المرأة الهندية الفقيرة مُعبّرة عن العواطف ، تلك المرأة التي تواصل تنظيف بيتها، وترعى أولادها! هذه المرحلة التي يكشف لنا فيها البشر عن «المطلق» الذي شككنا به مرات كثيرة، ويتحقق فيهم، كما قال هولديرلين، حيث يكثر الخطر يظهر من ينقذه.

في كل مرة في التاريخ عندما نكون على وشك الاستسلام، فإننا ننقذ أنفسنا من خلال الجزء الأكثر اضطهاداً من الإنسانية، علينا أن نتأمل كلمات

ماريا ثامبرانو: «لا ينتقل المرء من الممكن إلى الواقع، وإنما من المستحيل إلى الحقيقة». الكثير من اليوتوبيا كانت وقائع المستقبل.

ستقولون لي: هناك العديد من الأسباب والدوافع، ولعلكم أخبرتموني بذلك؛ حتى لا أؤمن بأي شيء.

الشباب مثلكم، ورثة الهاوية، يتجوّلون منفيين في الأرض التي لم تمنحهم مأوى. في هذا التفكك الوجودي والميتافيزيقي، يعاني الأيتام من السماء ومن الأرض. أفهم محنتكم، حيرة الانتماء إلى الزمن الذي انهارت فيه الجدران، لكن حيث لا يزال فيه مَن يلمح إلى آفاق جديدة. تهدف الأضواء الكاذبة إلى أسر رغبتك من خلال الشاشات، عليك أن تفكر جيداً بأنه لا يوجد تغيير ممكن عندما تكون قيمة الوجود أقل من سعر الإشعار الإعلاني. ازداد الارتياب خطورة بسبب الخضوع مع قبولنا مقداراً من البؤس. إنَّ التفاهة مع ذلك التحلل للمشاعر النبيلة، تتحول إلى إنسان كاريكاتوري مثير للشفقة، في وجود لا يمكن التعرف عليه في إنسانيته.

أنا أيضاً لديّ الكثير من الشكوك، وفي بعض الأحيان، أفكر إذا كانت الحجج التي حاولت فهم معنى الوجود من خلالها صالحة أم لا. تريحني معرفة أن Kierkegaard قال إن الإيمان هو الشجاعة في الحفاظ على الشك. أنا أتأرجح بين اليأس والأمل، وهذا هو السائد دائماً؛ لأنه إذا لم يكن كذلك، فإن البشرية ستختفي، لاسيما من البداية؛ لأن هناك العديد من الأسباب للشك في كل شيء. لكن بسبب الإصرار على ذلك الشعور العميق مثل مجنون، يبعدك عن كل منطق -كم هو رديء الإنسان الذي يتحدث فقط لسبب ما-، ننقذ أنفسنا، مرة ومرتين، وخاصة النساء؛ لأنهن لا يمنحن الحياة فحسب، وإنما يحافظن على هذا النوع الغامض الخفي. ليس من المستغرب، في واحدة من الثقافات التي تنبع حكمتها من عصر الألفية، الاعتقاد بأن روح المرأة التي تموت أثناء الولادة تقود إلى السماء نفسها التي انتصر فيها المحارب في إحدى معارك النزال.

لهذا أتحدث إليكم، متمنيّاً أن تكوِّن فيكم ليس الإثارة فحسب، وإنما اليقين أيضاً.

يشكك الكثيرون بإيماني بالشباب؛ لأنهم يعتبرونهم مدمرين أو غير مبالين. من الطبيعي أن يكون في أثناء المصيبة والكارثة مَن يحاول أن يفرّ مستسلماً ومنغمساً في تعاطي كميات كبيرة من المخدرات. المشكلة هي أن المعاقين عقلياً يتظاهرون بأن هذه مسألة بوليسية، عندما تكون النتيجة العميقة عبارة عن أزمة روحانية لزماننا.

أؤكد مرة أخرى على ثقتي اليومية بهم؛ الكثيرون منهم يواصلون القتال في وسط العاصفة، يعرضون وقتهم وحتى حياتهم نفسها للخطر من أجل الآخرين. في الشوارع، وفي السجون، وفي الأحياء الفقيرة، وفي المستشفيات. تبين لنا أنه في هذه الأوقات من النصر المزيف، هناك المقاومة الحقيقية، المتمثلة بالقتال في سبيل القيم التي يعتبرها الكثيرون مفقودة.

خلال رحلتي إلى ألبانيا، تعرفت على شاب صغير اسمه والتر، كان قد ترك منزله الواقع في منطقة توكمان، ليذهب إلى رعاية بعض المرضى رفقة مجموعة تيريزا كلكتا[18] ، مع كم العواطف التي تذكرني به، فإنني أثناء مُشاهدتي الأخبار المرعبة التي تصلنا من ذلك البلد الحبيب، أسأل نفسي أين هو الآن؟ إذ ربما سيقرأ هذه الكلمات التي تعرّفه على بطولته النبيلة.

(18) هو اسم الراهبة الألبانية الهندية الأم تريزا، حصلت على جائزة نوبل للسلام عام 1979م، عُرفت باهتمامها بالأطفال المهمشين، ورعاية المرضى والمحتاجين، لاسيما ضحايا الحروب والمجاعات، كما أسهمت أعمالها في إعادة تمثيل حياتها، وجعلها محورا من محاور المخيال الفني، فقد تم تصوير عدد من الأفلام السينمائية التي تحاكي تجربتها، وتوثق الأفعال الخيرية التي كانت تقوم بها. (المترجم)

هناك الملايين ممن يقاومون، أنتم أنفسكم يمكنكم أن تتأملوا عندما تنظرون إلى أولئك الرجال والنساء الذين يستيقظون من نومهم مع ساعات الفجر الأولى بهدف البحث عن وظيفة، يعملون بعد ذلك في أعمال، مهما تكن متواضعة، فإنّهم يتقاضون من خلالها راتباً يكفي فقط لتغذية أطفالهم، والحفاظ على الشرف في منازلهم. هل توقفت عن التفكير في عدد الأشخاص داخل الدولة كلها ممن يشتركون في هذا الجوع من أجل الكرامة والعدالة؟

آلاف من الأشخاص، على الرغم من الهزائم والفشل، يتظاهرون ويندّدون بملء أفواههم مطالبين بالحرية، والكشف عن حقيقة تقييدهم وإسكاتهم لسنوات طويلة. في كل مكان توجد إشارات على أن النّاس بدأت تصرخ: «كفى!!». الشيء نفسه يحدث مع حركة ثاباتيستا[19] في المكسيك، ومع الحركات التي كشفت لنا الخطر المحدق بمستقبل الكوكب الذي نعيش عليه.

(19) هي حركة تحرر مكسيكية، معروفة باسم «جيش ثاباتيستا الشعبي للتحرير»، وهي ذات ميول ليبرتارية اشتراكية، تقوم سياستها على القتال من أجل أن يسترد سكان المكسيك الأصليون حقوقهم، وتخوض هذه الحركة هجمات مسلحة ضد قوات الحكومة منذ عام 1994م. (المترجم)

علينا أن نتذكر بأن هناك مَن أسقط أكثر الامبراطوريات قوة في العالم ومعه ماعز وإبرة رمزية لنسج الثياب. إحدى الطرق الممكنة للخروج هي تشجيع التمرد كما فعل غاندي، بمساعدة الكثير من أمثالكم. إنها ثورة الأحضان المتساقطة التي أدت إلى انهيار هذا النموذج من الحياة، حيث استبدلت المقاعد بالمعابد.

هذه الثورة لا تُبَرِّر بأي طريقة بأن تبقى في برج عاجي، وأنت غير مبال بما يحدث بجوارك. حذّر غاندي بأن التظاهر غير العنيف والبقاء، بشكل سلبي، أمام الظلم الاجتماعي هو عبارة عن كذبة. بل على العكس من ذلك، أعتقد أن ذلك هو اتجاه «الفوضوية المسيحية»[20] التي تقبلناها بقصد الحياة.

(20) هو أحد أشكال فهم الحياة المسيحية، وترى أن المبادئ الأخلاقية والمنظمة ينبغي أن تقوم على الفوضى، ويرى المسيحيون الفوضويون أن للفرد قيمة أمام الله، فينبغي على الشعب أن يتفرد بالحكم، كأساس «للحرية الفردية»، ويرون أنه في هذه الحالة لا توجد حكومات لا مدنية ولا كنسية حتى. (المترجم)

لم يبقوا مجانين، مات هناك اللامنشي، ذلك الشبح الغريب في الصحراء. كل العالم عاقل، مفزع، عاقل فظيع.[21]

(21) هذا مقطع من قصيدة للشاعر الإسباني ليون فيليبي بعنوان «أنا لست مجنونا»، وكلمة «لامنشي» الواردة في هذا المقطع تعني «الرجل الذي من منطقة كاستيا دي لامنشا» في إسبانيا، وربما يقصد بها هنا دون كيخوته، بطل الرواية العالمية التي كتابها ميغيل دي ثربانتس. (المترجم)

هذا الجنون الذي تأسف ليون فيليبي على فقدانه، إنه عمل مشابه بذلك الذي قام به الرواقي جيفارا، عندما تخلى عن كل وسائل الراحة وغادر تجاه المعركة التي لا معنى لها في غابة بوليفية، مرض في الربو، دون أن يكون هناك علاج لحالته السيئة، لتنتهي حياته باغتياله من قبل أناس متوحشين ومثيرين للاشمئزاز. ماذا يهم إذا أخطأ مع المادية الجدلية؟ فهذا دليل واضح على براءته وموثوقيته. قاتل من أجل ذلك «الإنسان الجديد» الذي يحثنا اليوم على إنقاذ ما تبقى من التاريخ. في رسالته الأخيرة قال لوالديه: «والدي العزيزين، مرة أخرى أشعر أن أسفل كعبي أضلاع روثيناني[22]، أعود للسير مع درعي الذي على ذراعي»، وبالتالي أخرج للبحث عن ذلك الذي سماه ريلكه موته نفسه. تلك هي عظمته، التي اعتبرها البعض صغره، حماقته، لكن هذه العلامات من البطولة المجنونة هي التي تخلصنا من الكثير من الآثام؛ لأنه لا يمكن العيش بدون أبطال مقدسين ولا بدون شهداء. مثل هؤلاء الطلاب الذين ماتوا في مذبحة بشعة في ساحة (تيان آن من)، وهم يتصدون بصدورهم العارية الفولاذ الصلب للدبابات. إنهم هم الذين يكشفون لنا الطرق التي يمكن أن يتم من خلالها إعادة الحياة.

(22) هو اسم الحصان الذي كان يركبه دون كيخوته. (المترجم)

نحن نعيش في الوقت الذي تبدو فيه النهضة متدهورة، لكن إذا أصبح الخطر مصيرنا المشترك، فينبغي علينا الرد على أولئك الذين يطالبون برعايتنا.

منذ مدة شاهدت في التلفاز امرأة ترسم على محيّاها ابتسامة عريضة تنم عن حبها المتواضع. أرعشتني رقة تلك الأم من كورينتس أو من البارغواي، حيث كانت دموعها مجبولة بالسعادة بالتوائم الثلاثة الذين كانوا معها، أولئك الذين ولدوا في مستشفى رديء، دون يأس من التفكير بذلك كله، مثل أبنائها

الآخرين، ممكن كانوا يأملون من عاجز في قرية رديئة. تتلاطم الأمواج في هذه اللحظة في مياه بارانا. أليس الله من يتجلى في هذه الأمهات؟، لماذا ينبغي علينا أن نظهر ما في دواخلنا في القصائد فقط كما فعل خوان دي لا كروث أو في الرسومات المقدسة لــ جورج رووه؟

إذا بدت كل مقاومة سخيفة عند الشعور بالنهاية، فلماذا لا نتوقف عن الاستغراق في التأمل بهؤلاء المقدّسين؟ أليس ذلك علامة على وجود شيء ما على الجانب الآخر من السخافة؟

لا نعرف إذا كان ذلك نهاية الطريق، فالحياة تنتظر مثل المتسول الذي سيمد يديه إلينا.

هذا الإيمان الجنوني أو الخارق هو بالضبط مَن أوصلنا إلى الحضيض. هي الحاجة للحفاظ على الأماكن الموجودة حتى في ضواحي المدن الكُبرى، حيث مازالوا يحتفظون بسمات الإنسان الذي من لحم ودم وعظام.

عندما ينهار العالم المتطور، بكل موارده وتقنياته، فسيتخلص الإنسان من وحدته المفقودة، وربما، عندما نستيقظ من كابوسنا المفزع، وعندما يؤلمنا الفراغ الإنساني في الصدر، سنتذكر حينها أننا كُنّا مثل تلك التي قال عنها ريني تشار: «مخلوقات متنقلة، تقفز من مكان لآخر، ليس للبحث عن مائدة طعام فارهة، وإنما عن مأوى يجمعنا».

أخبرتني عما يهزك، بنوع من الارتعاش الذي يطغى عليك وما زال مستمراً، بعد محادثاتنا في ذلك المقهى لتسمعني أتحدث بهذه الكلمات.

عليك أن تسامحني، على الرغم من مرور السنين، لا يمكنني أن أتجنب الوجود الهائل الذي أعتبره شيئاً أساسياً.

من ناحية أخرى، هناك هزّات مهمة جداً!؛ لأنها سبّاقة لهذا النوع من القرارات التي تهز أسس وجودنا، وعلى الرغم من أنها تولد سوء الفهم، فإنها في نهاية الأمر تؤثر على مصير الآخرين. ينجز المبدعون الكبار أعمالهم تحت ضغوط مماثلة. فما نقوم به بحماس هو فقط الذي يستحق جهدنا، أما الباقي فلا يستحق ذلك.

باستطاعتي أيضا أن أهرب من العالم، أنتم مَن منعني من ذلك، برسائلكم، وبكلماتكم التي عبرتم لي عنها في الشارع، وبعجزكم.

أقترح عليكم -مع رصانة الكلمات الأخيرة للحياة- بأن يتقبل بعضنا الآخر بالتراضي: أن نخرج إلى الفضاء المفتوح، وأن نخاطر بأنفسنا من أجل الآخرين، نزرع الأمل، بمن يمدون لنا ذراعهم، فإنّ موجة التاريخ الجديدة

ترفعنا. ربما هناك مَن يقوم بذلك بالفعل، بطريقة صامتة وبخفاء، مثل البراعم التي تنبض تحت الأرض في فصل الشتاء.

الشيء الذي لا يزال يستحق المعاناة والموت من أجله هو تبادل الأفكار بين البشر، ذلك الميثاق والعهد بين المقهورين. إنّه برج واحد فقط، نعم واحد فقط، على أن يكون شامخاً وغير قابل للتدمير.

في الأوقات المظلمة يساعدنا مَن يعرف السباحة في الليل. تقرأون الرسائل التي بعثها ميغيل هيرنانديث من السجن، حيث وجد هناك ميتاً: سنعود إلى تقديم كل شيء فقدناه وعثرنا عليه مجدداً: الحرية، السلاسل، المرح، وتلك المودة والمحبة المخفية التي تجرنا للبحث عن أنفسنا في جميع أنحاء الأرض.

أفكر، وبشكل دائم، في نبل هؤلاء الرجال الذين افتدوا الإنسان. فمن خلال موتهم يعطونا قيمة عالية للحياة، ويظهرون لنا أن العجز لا يرفض التاريخ، ويذكروننا بأن الإنسان لا يناسبه إلا اليوتوبيا.

إنَّ أولئك القادرين على تجسيد اليوتوبيا هم، فقط، مَن سيكونون مؤهلين للقتال الحاسم، ولاسترداد كل ما فقدناه من الإنسانية.

عن المترجم

حسني مليطات، باحث ومترجم فلسطيني، حاصل على درجة الدكتوراه من قسم الدراسات الثقافية والأدبية والفنية في جامعة الأوتونوما بمدريد، متخصص في الدراسات الثقافية والأدب المقارن، شارك في العديد من المؤتمرات الدولية، ونشر عددا من الأبحاث العلمية والدراسات النقدية المختلفة.